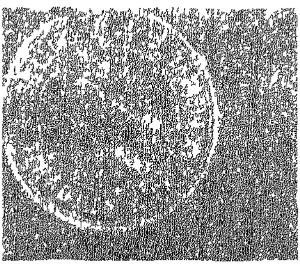


الحضارة الاسلامية

(٢)

احوال البلاد العربية قبيل ظهور الاسلام

أيها السادة . لابد لمن يعنى بمحاضرات على الحضارة الاسلامية من أن يشدو بذكر الاسلام . واذ قد نيطت بي تلك المحاضرات اضطررت الى أن أشدو بذكره . ولو كلفت بمحاضرات على الحضارة الوثنية لكنت مضطرا الى أن أشدو بذكرها كذلك . وأنا ان ذكرت الاسلام فانما أذكره من حيث هو نظام عمراني لاديني . ولذلك في المحاضرة الفائتة اجتزت عصر النبوة وبدأت بعصر الخلفاء الراشدين لان عصر النبوة كان دينيا محضا . واذ كانت محاضرة اليوم في معرفة أحوال بلاد العرب قبيل ظهور الاسلام وجب أن نعرف تلك البلاد ثم نعرف أحوالها

***

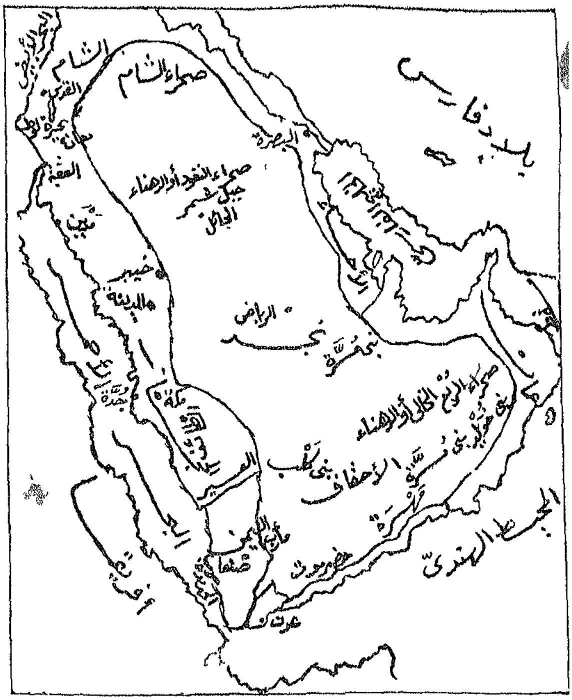
بلاد العرب هي تلك الارض الواسعة التي في جنوب آسيا يحدها شمالا الشام والجزيرة والعراق وغربا قناة السويس والبحر الاحمر وجنوبا خليج عدن وبحر عمان وشرقا بحر عمان والخليج الفارسي والعراق فهي شبه جزيرة عظيم وقد تسمى جزيرة تسامحا أما تسميتها (بحيث جزيرة) فمن الخطأ الفاضح — وهي ثمانية أجزاء كبيرة الحجاز واليمن في الغرب . وحضرموت ومهرة وعمان في الجنوب . والبحرين والحسا في الشرق . ونجد والاحقاف أو الدهناء (١) على هول في الوسط .

---

(١) قال الاستاذ : الدهناء دهناوان . احداهما في الشمال بقرب البصرة وبادية السماوة وقد يسميها ناس بالنفود . وأخراها في الجنوب قيل هي صحراء الربع الخالي وقيل هي الاحقاف وهي أكبرها . وقد كثر ذكر العرب الدهناء ومن ذلك قول نصيب

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب
على حين ألهى الناس جل امورهم فندلا زريق المال ندل الثعالب

فابحثوا أي الدهناوين أراد الشاعر في هذين البيتين



خريطة اجمالية
عن شبه جزيرة العرب

فأما بلاد عمان والبحرين في الشرق فكانت مفصولة عن سائر بلاد الجزيرة بأمرين أحدهما طبيعي والآخر سياسي . فأما الطبيعي فتلك المفاوز والبراري الواسعة والصحاري الجدبة القفرة التي حالت بينها وبين سائر البلاد . وأما السياسي فاذعانها لسيادة الاكاسرة .

وأما بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب فكانت ميدانا للحروب الداخلية والفتن الاهلية فروت من قمة مجدها الباذخ وفنيت منها سلالة التبابعة الذين بنوا مأربا وقصور غمدان وظفار وأقاموا سد مأرب الذي يشبه خزان اسوان في مصرنا الآن . وكان هدم ذلك السد في أوائل القرن الاول للميلاد سببا لخراب هذه البلاد التي سماها اليونان والفرنج على أثرهم البلاد العربية السعيدة . واسمها دليل على ذلك فان اليمن واليمن واليمين من مادة واحدة . فهي من أخصب بلاد العرب ولخصبها وحسن موقعها كانت الدول القديمة تحاول امتلاكها وتتحين الفرص لذلك وكان في بلاد اليمن أمم من أضخم الامم بلغت أعلى منازل العظمة والابهة وضخامة الملك فكان فيها مملكة الحميريين ومنهم الملوك التبابعة واحدهم تبّع . وكان التبع بمنزلة امبراطور المانيا الآن وشاهنشاه الفرس أي ملك الملوك لسيادته على عدة ملوك مستقلة استقلالا داخليا يسمون الاذواء أو الاقيال . وكانت عدن من المدن المستقلة فكانت كمدينة همبرج في المانيا الآن وهي التي تسمى المدينة الحرة لمجلسها النيابي (السناتو) الذي يدير شأنها وكلا البلدين عدن وهمبرج فرضة كبرة لمملكتها

وكان في تلك البلاد السعيدة أديان شتى ولكل دين أنصار يحملون لواءه ويحمون ذماره . فكانت فيهم اليهودية . وكانت فيهم النصرانية انتشرت في نجران كلها وكانت فيهم الوثنية . وكان آل كل دين يطمعون في الغلب والرياسة ويحاولون اعلاء دينهم بخفض سائر الاديان فاذا عجزت فئة دون بلوغ مأمولها استنجدت الامم الاجنبية من الحبشة والروم والفرس . فساعد ذلك العداء وهذا الخلاف وتلك المنافسة وتعدد الملوك في هذه البلاد ـ ساعد كل ذلك الامم الاجنبية الطموحة الى امتلاكها لخصبها وحسن موقعها على الامتلاك فهجمت الحبشة عليها ثلاث مرات وقد سعى سيف بن ذي يزن في دفعهم فاستغاث بالروم (الاعارقة) فلم يغث ـ كما أخفق امرؤ القيس في استنجاده قيصر وأمره

معروف ــ فالتجأ الى فارس فأغاثه كسرى بمرزبان (وهو يشبه البطريق (١) والمرزبان اسمه Satrape بالفرنسوية) وجيش معه من المسجونين جيشا فأعادوا اسم الملك الى سيف بن ذى يزن فهنأته العرب وأوفدت اليه قريش وفد عبد المطلب المعروف أمره . وبقيت السياده العملية للفرس (وكانوا يسمون الاذواء بالابناء) حتى ظهر الاسلام فأجهز عليهم وأدال دولتهم

ولم يزل اختلاف أهل اليمن الدينى والسياسى الذى لايدخل بلدا حتى يجعل أعزة أهله أذلة ينخر عظامهم الى أن اضمحلوا وبادوا ولكن السبب الاقوى في ابادتهم وزوال ملكهم هدم سد مأرب كما تقدم فتفرق أهله أيدى سبا فنزلوا الحيرة وغسان ويثرب وغيرها ــ هؤلاء هم عرب الجنوب والشرق وتلك حالهم .

أما عرب الشمال فان لهم مملكتين صغيرتين مملكة الحيرة في العراق العربي وملوكها يسمون المناذرة أو النعامنة وكانوا يذعنون لسيادة الفرس . ومملكة غسان في الشام وملوكها يسمون الغساسنة نسبة الى عين ماء نزلوا بها وكانوا يذعنون لسيادة الروم . وأنشئت هاتان المملكتان في القرن الاول للمسيح وكان ملوكهما في خصام دائم لاتضع الحرب أوزارها بينهم الا اذا نشب القتال بين تينك الدولتين الضخمتين الفرس والروم فتنضم مملكة الحيرة الى الفرس ومملكة غسان الى الروم لا لنصر احدى الدولتين على الاخرى ولكن لانتقام بعضهم من بعض وهم في مثل هذه الحروب لافضل لهم فى النصر لانهم ذيول وأذناب لغيرهم ــ هذا أمر الشرق والجنوب والشمال.

أما الغرب والوسط وهما الحجاز ونجد فلم يشبهما نقص وقد أتم الله عليهما نعمته فلم يسلبهما نعمة الحرية والاستقلال فكانوا كافة أعزاء أباة للضيم يأبى كلهم الا أن يكون رئيسا فهم رؤساء جميعاً . لذلك لما نشط علماء الصدر الاول لتدوين اللغة العربية لم يأخذوها الا من كلام قبائل معدودة من نجد والحجاز وما اكتنفهما لسلامة ألسنتهم

(١) قال الاستاذ . ان البطريق غير البطريرك فالاول لقب لذى منصب سياسى والآخر لقب لذى منصب دينى والاول Patrice و Patrique بالفرنسوية والثانى Patriarche وقد عربته العرب أيضا بقولهم بطريرخ وفى بعض الاحيان يختصرونه ويقولون بطرك

مما إناب ألسنة آل سائر البلاد العربية وتلك القبائل المعدودة هى قيس وأسد وتميم في نجد ،وهذيل بغزوان جبل فوقه مدينة الطائف . و بعض كنانة بدومة الجندل بين الشام والمدينة قرب جبلى طيء و بعض بنى طيء بجبلى أجأ وسلمى في شمال نجد .

ومكة وهى قصبة الحجاز لم ينبه لها ذكر قبل الاسلام الا بالكعبه لذلك حاولت ثقيف في الطائف أن تلفت وجوه الناس عنها فأنشأت لها بيتا وأقامت فيه صنما اسمه ذو الخلصة وجعلت فيه مزايا بيت الله الحرام فكان مشبع الجائع ومروى الظمآن ومأمن الخائف ومقضى ذوي الحاجات ومجار المستجير ومأوى أبناء السبيل . وكانت العرب تسميه الكعبة اليمانية وكان يزاحم الكعبة الحجازية . كذلك صنع عبد المسيح بن داوس ابن عدي أحد أمراء اليمن السالفين فأنشأ فى نجران في أول انتشار النصرانية فى تلك الجهات قبة سماها كعبة نجران وجعل لها تلك المزايا نفسها وكان يؤمها كثير من العرب فكانت تلك الامكنة وغيرها ممن حذا حذوها تنازع مكة قديما الرياسة وتنافسها في العظمة .

ومنافسة الطائف لمكة حملت ثقيفا على ارشاد أبرهة الحبشي على الطريق لما أراد هدم الكعبة ليخلولهم الجو بل ان الروم كادوا يملكون الكعبة فى عصر النبى (ص) باغراء وقيادة عثمان بن حويرث النصرانى .

فلم يكن في بلاد العرب مملكة أو شبه مملكة لها من العز ما يكفى لاعلاء كلمتها ورفع رايتها على سائر بلاد العرب لان القوم جميعا كانوا في نزاع دائم وشقاق مستمر عاقهم عن تفوق بعضهم على بعض . ولم تبلغ مكة قبل الاسلام يوما ما في بلاد العرب مبلغ اثينا في دولة اليونان ولا رومية في دولة الرومان ولا بوزنطيه أى القسطنطينية في دولة القياصرة من بني الروم بل كانت ممالك الحيرة وغسان وقبائل نجد وتهامة ذات شأن حقير وأثر ضئيل في تلك الملاحم التى نشأت بين رومية ثم القسطنطينية و بين الفرس .في تلك الملاحم التى كان أبطالها سابور (سابور ذو الاكتاف) ويوليان المرتد وبليسا وكسرى انوشروان وكسرى ابرويز وهرقل

هذه كانت أحوال البلاد العربية قبيل ظهور الاسلام ولنرجع الآن الى حال العالم كله قبل الاسلام فنقول

جاء الاسلام بدين التوحيد وفي الارض دولتان : دولة الروم (١) وهى نصرانية تقول بالتثليث . ودولة الفرس وهى مجوسية تقول بالثنية

فأما الروم فقد كانوا منقسمين على أنفسهم بسبب اختلافهم في الاقاويل الدينية وفي العقائد المذهبية . فكانت بين رجالاتهم و بيوتاتهم خطوب وأهوال أنستهم تدبير الملك وسياسة البلاد حتى فسدت الاحوال واختلت الاعمال واضطربت شؤون الولايات وعمت الفوضى جميع أطراف الامبراطورية .

هذا المرض الطبيعى الذى أصاب دولة الروم عند أول بداية الاسلام في عهد محمد عليه الصلاة والسلام تجددت أعراضه بمينها فيما بينهم أيضا حينما أشرف محمد الثانى على فتح القسطنطينية فكان انقسام الروم على أنفسهم واختلافهم في شؤون بسيطة سببا في ظهور الاسلام وانتزاع تسعة أعشار أملاكهم منهم كما كان سببا لاستيلائه على دار مملكتهم ومحو أثرهم

ومما تجب الاشارة اليه في هذا المقام انه قد حدثت أمور سياسية دعت قياصرة الروم للمساعدة على مزج المسيحية بالوثنيه فتيسر لهم بهذه الوسيلة تعميم هذه العقيدة الجديدة على جميع الاهالى الوثنيين الخاضعين لصولجانهم فنتج عن ذلك اختلاف كبير في المشيئة والطبيعة والناسوت واللاهوت أوجب زياد الارتباك بين رجال الكهنوت .

هذا فضلا عن اشتداد النزاع والخصام بين أساقفة القسطنطينية والاسكندرية وورومية اذ كان كل منهم يريد لنفسه الزعامة على الملة النصرانية . فالاول يؤيد دعواه بأن مدينته هى كرسى الملك فلا بد أن تكون مقرا للدين لان الملك هو الحارس للدين.

(١) قال الاستاذ — كان في رومية دولة الرومان التى ملكت العالم بأسره ثم اضمحلت فجزئت دولتين دولة الرومان الغربية وعاصمتها رومية ودولة الرومان الشرقية وعاصمتها بوزنطيه فظهرت النصرانية في الدولة الشرقية على يد قسطنطين بن هلانة فتنصر وذهب الى القدس وأخذ خشبة الصليب و بنى القسطنطينية فعرفت باسمه . ولكثرة احتكاك العرب بتلك الدولة الشرقية ومحاربتها رخموا اسمها فحذفوا منه الالف والنون لكثرة الاستعمال فقالوا الروم . والى حدود القرن التاسع للميلاد كان المؤرخون يسمون آل عثمان الروم . ومؤلفاتهم تشهد بذلك منها الشقائق النعمانية وغيرها

وأما أسقف الأسكندرية فكان يقول ان السيادة الدينية لاتصح لغيره نظرا لموقع مدينته التجارى ومركزها العلمى وان الدين انما يستند على المال ولا قوام له بغير العرفان . بقى صاحب روميه وقد طبق الآفاق بقوله ان رومية هى المدينة الخالدة ذات المآثر الباقية وقد كانت لها السيادة الدائمة من حيث الديانة والسياسة فصاحب الكرسى فيها هو الاحق بالرياسة .

فكان هذا التخاصم مثيرا لثورة دينية اضطربت لها الدنيا بأسرها ولا تزال آثارها باقية بين المسيحيين الى الآن .

وقد ترتب على هذه الثورة نتيجتان

(١) تداخل الفرس وهدمهم لكيان النصرانية فى آسيا .

(٢) تمهيد السبيل للاصلاح النهائي الذى قام به العرب وأعقبه تولد الحضارة الاسلامية .

شرح النتيجة الاولى

ان الفرس وثبوا على هرمز (أو هرمزد) ملكهم ففقئوا عينيه وحاموه ولم يمتلوه حرجا وولوا عليهم مزربانا من غير بيت الملك اسمه بهرام وكان ذلك في السنة الثامنة لموريق Mauriceس قيصر الروم وهى سنة ٥٩٠ للمسيح وكان لهرمزابن حدث اسمه كسرى وهو الثانى المعروف بابرويز وعند الفرنج Parvès فخرج من أرض الفرس متنكرا في زي سائل حتى وصل الى أرض الروم وكتب من انطاكيه (١) كتابا الى موريق قيصر الروم يستنجده فرد عليه بكتاب (٢) وكلاهما من أبلغ ما كتب ملك الى ملك وأرسل اليه ابنه وجيش معه جيشا وأمده بمال فاسترد ملكه وبايعه الناس كلهم وتولى وزارته برمك جد البرامكة الذين ازدانت بهم الدنيا في دولة الرشيد.

(١) انطاكيه بالفتح ثم السكون والياء مخففة فاذا أريدت النسبة شددت والعرب كانت اذا أعجبها شيء نسبته الى انطاكيه وهى قصبة العواصم من الثغور الشامية ومن أعيان البلاد وأمهاتها معروفة بطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير

(٢) هنا تقدم الاستاذ الى الطلبة أن يبحثوا عن الكتابين

فلما رأى ذلك قيصر الروم أراد أن يغتنم الفرصة لرغبته في بلاد فارس فزوجه من ابنتــه مريم ثم أهداه حلة عليها صليب فلبسها واستعرض بها جنده . فأما الفرس فوجدوا على ملــكهم للبسه حلة عليها الصليب وأما الروم فلم ينظروا الى شهامة قيصرهم مع عدوهم بعين الرضا لاسيما تزويجه اياه من ابنته فشغبوا عليه وقلبوا تماثيله وكان القائم بهــذه الحركة بطريق ليس من بيت الملك اســمه فوقاس Phocas كما كان القائم بالثورة على هرمز الفارسي مزربان من غير آل ساسان .

وكان بطريرك القسطنطينية قد غضب على القيصر لهـذا السبب ولاســباب أخرى فكرّس فوقاس وبارك له وجعله امبراطوراً ولــكن بعدان تحقق من ارثوذكسيته . ثم قتل الروم موريقا وأبناءه وزوجته وبناتها ومال القوم على أشياعه وأوليائه ففقئوا عيون بعضهم وسلوا ألسنة بعض آخر ووثبوا على جماعة منهم فقطعوا أيديهــم وأرجلهــم وانهالوا على جماعة آخرين جلدا فتقتلا .

وصلت أخبار هذه الحوادث الى رومية والى فارس فكان لها فيهما صدى متخالف متعاكس . فأما روميه فقد ابتهج فيها البابا غريغوريوس وطلب من الله أن يأخذ بنصر فوقاس وأن يشــد أزره على عــدوه . فــكانت مكافأته على ذلك أن اعترف له قيصر الروم باللقب الذي طالما منى به نفسه وهو « الاسقف العام »

وأما فارس فلم يكد يبلغها خبر هـذا الانقلاب حتى امتعض له أبرويز وأخــذته الحفيظة لصداقته مع موريق الذي كانت له عليه اليد البيضا- في اعادة ملك أجــداده اليه . وقد التجأ اليه ابن موريق فآواه وأكرم مثواه ووعده برد الامر اليه .

كذلك كان الحال في افريقيه فان هرقل الاكسرخس (١) Exarque أي الوالي أو العامل بلغ منه الحزن منتهاه لماويث الارجوان الامبراطوري بوضعه على جسم ذلك الدخيل

( ) قال الاستاذ قال البيروني نقلا عن كتاب معارف الروم اثناء ذكر المراتب الدنيوية والسياســية في دولتهم ان الاكسيرخس هو صاحب الف رجل والحقيقة انه كان في الولايات الــكبرى نائبا عاما عن القيصر في جميع الاعمال . وهذا اللقب يطلق الآن في الــكنيسة اليونانية على مندوب يرسله البطريرك لزيارة الاقاليم كالقاصد الرسولي في الــكنيسة اللاتينية .

فوقاس فرفض دفع الجزية اليه وامتنع عن الاعتراف به ومنع عنه الحبوب والغلال التي كانت ترسلها افريقيه الى القسطنطينية فسجن الامبراطور في أحد الاديره زوجة هرقل واسمها ابيفانيا Epiphanie وعروس ابنه واسمها اودسيا Eudossie فاراد هرقل ان يحاربه ولكنه نظرا لشيخوخته ولعاهاته عهد بذلك الى ابنه هرقل فاتفق مع نقيطا Nicétas ابن عمه غريغور المستبد باعمال سبيطلة في الحوز الجنوبي لتونس على غزو الامبراطور وانتزاع الملك منه على ان هرقل يذهب اليه بحرا وأن نقيطا يسير اليه برا عن طريق لوبيا (٢) ومصر والشام وآسيا الصغرى واتفقا على ان الملك للسابق الى القسطنطينية اذا قتل فوقاس فكان السابق بالطبع هرقل وذهب موفقا مظفرا منصورا الى القسطنطينية . فانضمت اليه الامة ومجلس أعيانها بل ورجال كهنوتها الذين لم يكن لهم مبدأ ثابت في الاحوال السياسية نظرا لكثرة تزعزعهم في الاصول الدينية فسرت اليهم عدوى الاختلاف في السياسة من جراء الانشقاق في المذاهب والاعتقادات لاسيما ان القيصر أطلى بطاربرك روميه لقب الاسقف العام فأغضب بطريرك القسطنطينية .

تملك هرقل بن هرقل وقتل فوقاس واستخلص عروسه ولبس رداء الارجوان وهو شعار الامبراطور على يد البطريرك سرجيوس (سرجس أو سركيس) غير ان الثورة في القسطنطينية لم يرتضها شاهنشاه الفرس وكسرى ابرويز فسرح المرزبان المعروف بشهر براز في جيش كثيف الى الروم للطالب بثأر موريق صاحبه وصهره وللايقاع بالملك الجديد فعبر الفرات وهاجم بلاد الامبراطورية وقوبلت جنوده بالترحيب من المنشقين بسبب الدين واستحوذ على انطاكيه فقيسارية فدمشق ثم أورشليم وأحرق كنيسة القيامة (أو القمامة) وكنيستي قسطنطين وهيلانه ثم استولى على مصر

(٢) لوبيا . جاء في قاموس الجغرافيا القديمة للاستاذ مانصه لوبيا . اسم لصحراء تفصل بين ديار مصر وايالة طرابلس الغرب وتسمى عند الفرنج Lybie وصحة اسمها بالعربية لوبيا كما وردت في كتب الجغرافيا العربية وفي طبقات الاطباء وغيره لاباليا كما نقله المترجمون مراعاة للفظ الفرنسويين بها مع أن الصواب في تعريب حرف الياء اليونانية Y هو الواو كما هو في أصل اللغة اليونانية وبها سمى النبات المعروف باللوبيا

وهرب منه يوحنا الرحوم بطريرك الاسكندرية الى قبرص ومات بها وأنفذ جيشا لمحاصرة قسطنطينية وهي سرة الدولة ودار الملك فخاف القيصر أن تفتح واستعد للهرب وجمع خزائنه وذخائره وفى جملتها خشبة الصليب المقدس وأرسلها في سفن له الى افريقية فعصفت بها الرياح وسيرتها الاسكندرية فظفر بها شهربراز وقبض عليها كلها و بعثها الى ابرويز فحمد الله الذى سخر له الريح حتى جاءته بخشبة الصليب وأفرد لها خزانة سماها كنز الريح وهى بالفارسية كنج باذاورد. ثم استحوذ شهربراز على ساحل بحر الروم لغاية طرابلس الغرب وامتلك آسيا الصغرى ولبثت جنود الفرس معسكرة مدة عشرة أعوام على أبواب القسطنطينية وفي أثناء ذلك ماتت زوجة القيصر فتزوج مارتينا بنت أخته خلافا لما تقضى به أوامر الكنيسة فغضبت عليه الامة كما غضبت عليه الكنيسة وأوقعته بين نارين نار الثورة الداخلية ونار العدو الفارسى الواقف له بالمرصاد فضلا عن هجمات خاقان المغول الوافدين من سواحل بحر قزوين . فلما ضاق الحال على هرقل و بلغ منه اليأس منتهاه وأعيته الحيل راسل كسرى في الصلح فأجابه « لاأرضى بمصالحة امبراطور بوزنطيه الا اذا كفر بآلهه المصلوب فتمجس وعبد الشمس » .

فاستبسل الامبراطور هرقل وجمع كل قواه (لاسيما ان أهل النصرانية غاظهم هذا الجواب من الملك المجوسى فكان سببا في التفافهم حول قيصرهم) حتى تيسر له ارضاء كسرى بعد زمان طويل بالرجوع عن الامبراطورية في نظير فدية قدرها ألف قنطار من الذهب وألف قنطار من الفضة وألف ثوب من الخز وألف فرس وألف عذراء .

وكان النبى العربى قد ظهر في أثناء هذه الوقائع ونزل عليه القرآن وأشار اليها بقوله تعالى : « غلبت الروم في أدنى الارض » ثم تنبأ بقرب فوزهم فقال « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » فكانت هذه النبوة المتقدمة على وقتها المحدد معجزة لاحمد . وذلك ان هرقل لم يخضع الا أمام القوة ولم تسكن نفسه للاستكانة حيال هذه المذلة فتربص حتى جمع شمله الرث وعاد الى مهاجمة الفرس حينما ساعدته الفرص . فظهر عليهم في كل مكان وقارنه السعد والظفر في جميع الوقائع وخدمت جنوده الايام فكانت انتصاراته أبهى وأجل مما أحرزته رومية في أيام مجدها القديم حتى شبهوه بالاسكندر وقسطنطين

الاكبر. وهذا سر قوله تعالى « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » وقد راهن على ذلك أبو بكر الصديق وفاز بكسب الرهان.

فاسترد هرقل من العدو كل ماأخذه من بلاده وأملاكه ولكنه لم يتمكن من اعادة الدين الى سابق نصابه لان المجوسية أنزلت بالنصرانية امام العالم كله مسبة ليس بعدها مسبة اذ أهانت القبر وأحرقت الكنائس وأخذت الخشبة فتحارب الدينان الكبيران وتفانيا فى تلك الايام ومهدا السبيل لظهور الاسلام.

(٣)

شرح النتيجة الثانية

ان فوز الفرس كان مقدمة لامر أكبر خطرا وأعظم شأنا وأعنى به ثورة البلاد الجنوبية على الديانة النصرانية وهى ثورة أضاعت على الروم تسعة أعشارأملاكهم الجغرافية في آسيا وافريقا وجزأ من أوروبا كما قلنا.

فقد كان النزاع الديني بلغ منتهاه بين القسطنطينية ورومية من جهة و بين صفرونيوس بطاريرك أورشليم من جهة أخرى. وصفرونيوس هذا هو الذي سلم بيت المقدس الى عمر بن الخطاب فيما بعد. وفي ذلك الوقت كان قد ظهر النبي الامى ودعا العرب الى توحيد الله وجاءهم بالاسلام والقرآن فدانوا له واتبعوا ملته ثم ذهب الى الرفيق الاعلى بعد ان أكمل الله للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الاسلام دينا ذلك هو الدين الذى يدين به ثلث أهل الارض.

ولسنا في مقام شرح الاسلام وأصوله الحكمية وقواعده الفلسفية فان ذلك مما لايدخل ضمن دائرة البحث في هذا الدرس وانما نقول ان الوسائل قد تمهدت لقيامه للاسباب التى اشرنا الى بعضها وهى دينية ولاسباب سياسية تدعونا الحاجة الى الالمام بها بطريق الايجاز

دولة الروم

ان هذه الدولة قد اضطربت أمورها قبيل ظهور الاسلام وظهرت فيها أمراض اجتماعية بسبب الاختلاف الذى بلغ منتهاه بين ذوى السلطة فيها سواء كان من جهة

الدين أو من جهة السياسية والعمران. وقد شاعت عند ظهور الاسلام نبوة غريبة تداولتها الالسن في كل مكان وهي ان دولة الروم ستسقط على يد الامم المختونة. فاضطهد هرقل اليهود اضطهادا شديدا وابادهم جميعا حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم الا من فر واختفى وقد نجا جماعة منهم بالهرب الى بلاد العرب لانهم كانوا ساعدوا الفرس على النكاية بالنصارى .

ولقد أشرنا في تضاعيف هـذا البيان الى ماوصلت اليه الشامات والعراق وآسيا الصغرى في عهد الدولة الرومية عند ظهور الاسلام من الفوضى بسبب الاختلافات الدينية والاضطرابات السياسية . وأما شمال افريقا فقد نازلها القوط Goths بعد ان جازوا بحر الزقاق المعروف الآن ببوغاز جبل طارق في سنة ٦٢٠ للميلاد أي قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين . وتملك القومس (الكونت) يليان Julien بلاد سبتا وهو الذي مهد للمسلمين فتح الاندلس . وبعد ذلك بقليل استقل بملك سبيطله من أعمال تونس الآن واسمها الافرنكي القديم Suffetula والآن Sbitla البطريق غريغوريوس وهو أخو هرقل صاحب افريقية الذي تولى ابنه هرقل امبراطورية الروم وكانبه صاحب الشريعة الاسلامية . فلم يبق للامبراطورية الرومية في افريقية سوى قرطاجة ومدائن قليلة . وكانت كلها مضمحلة الاركان بحيث اذا هاجمها عدو من الخارج بشيء من الشدة والعزيمة سقطت في يده وذهبت معها بقايا الدولة الرومية أدراج الرياح وذلك هو الذي وقع عند ماظهر الاسلام في ذلك الوقت .

أما مصر فقد كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى وهم على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية وهم ملكيون أو ملكائيون يزيدون على ٣٠٠,٠٠٠ نفس والقسم الآخر عامة أهل مصر باسرها ويقال لهم القبط وانسابهم مختلطة لايكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من العربي من الاسرائيلي الاصل من غيره . وكلهم يعاقبة فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة ومنهم الاساقفة والقسوس ونحوهم ومنهم أهل الفلاحة والزرع ومنهم أهل الخدمة والمهنة . وبينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة مايمنع منا كحتهم ويوجب

قتال بعضهم بعضا (١) وكانت الامة المصرية حيال سادتها الروم في منتهى الذل والعبودية قد اثقلتها الضرائب والمظالم وحاقت بها اسباب الخسف والهوان وابناؤها يسومهم الروم سوء العذاب ويمتصون ينابيع ثروتهم ويغتصبون ثمرة أتعابهم وولاة الروم لاهمّ لهم الا تطالب المال وجمعه من هنا وهنالك دون أن يعبئوا بشيء من مصالح البلاد الاقتصادية والزراعية أو من أمور الرعية وكثرت الفتن الدينية بدسائس الروم حتى افتتنت العائلات (الاسر) وحقد الاب على ولده والزوجة على زوجها والاخ على أخيه والابنة على امها مع اختلاف المذاهب وتشعب المشارب التى كان القائمون بها يقوم بسببها بعضهم على بعض فيريقون الدماء هدرا في الشوارع والازقة فوصل الخلل والاضطراب الى نهاية ماتتصوره العقول (٢) حتى صارت مصر تترقب الخلاص من نير الروم بأية وسيلة كانت ولذلك استقبلت العرب بفرح شديد كما كانت استقبلت الرومان الذين انقذوها من البطالسة وكما كانت استقبلت البطالسة الذين خلصوها من ظلم الفرس

وقد روى ابن العبرى ان الشمس انكسف نصف جرمها في السنة السابعة عشرة لهرقل وثبت كسوفها من تشرين الاول الى حزيران ولم يكن يظهر من نورها الا شيء يسير . فكأنى بهذا الكسوف الغريب الذى وقع في سنة ٦٢٧ واستمر نحو خمسة شهور كان نذيرا بكسوفين آخرين معنويين وهما كسوف دولة الروم وكسوف دولة الفرس الذين كانوا يعبدون الشمس

دولة الفرس

ان اضطراب الدين اذا شاركه اختلال السياسة آذن بضياع السلطان وانقراض الدولة . فلقد رأينا الامم عندما تأخذ في الانحطاط وتبدو على كيانها علامات الانحلال يتشبث ابناؤها بالاختلاف في الدين وتتفرق اهواؤهم في المذاهب فيكون ذلك مدعاة للتنافر بين قادتها والتقاطع بين أهل الرأى فيها فيهدمون أنفسهم بأنفسهم وتصبح الامة

(١) مقريزى ٣ ص ٤٩٢
(٢) الكافي ١ ص ٣٧٨

بلا رؤوس ولا سراة . وهو مرض اجتماعي يصيب الامم عندما تبلغ الهرم أو يدانيها العدم . فيتفرق الشمل وتذهب الريح و يضيع الملك .

هكذا كان الشأن ولا يزال . وفي التاريخ أكبر عبرة لذوي الالباب . هذه دولة الفرس أيضا كانت تدين بالمجوسية التي أطبق الناس على تعريفها بأنها « الدين الاكبر والملة العظمى » كان لها من الشأن ما كان حتى اذا تسللت اليها الاختلافات الدينية تحلل جثمانها وحل مكانها الاسلام فلقد قام فيها قبيل ولادة النبي العربي رجل اسمه مزدك (مزدق أو مردك) فقال بالاصلين أي النور والظلمة وأدخل عليهما طريقة التثليث التي قال بها الروم فذهب الى ان الاصول والاركان ثلاثة : « الماء والنار والارض » وانها اختلطت لحدث عنها الهان اثنان وهما مدبر الخير ومدبر الشر ثم نهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال . ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والاموال أحل النساء والاموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ (١) واعقبه و يصان ثم « مرقيون » فمزجا بالمجوسية شيئا من تثليث النصرانية فاضطرب الدين الكبير في الشرق كما اضطرب الدين الكبير الآخر في الشمال وفي الغرب . وكان ذلك ممهدا لظهور دين جديد لصلاح العالم وأعني به دين التوحيد .

لم يقف الاضطراب في فارس عند حد الدين بل اضمحل أمرها بالحروب الكثيرة التي اشتبكت فيها قبيل ظهور الاسلام . فانها ما كانت تفرغ من مغير حتى يهاجمها آخر هو أشد وأقوى . وما زالت تتوالى عليها صدمات خاقان الترك الاعظم ثم قيصر الروم ثم ملك الخزر وذلك كله في أيام هرمز أبي كسرى أبرويز الى ان اجترأ الاعادي على فارس وسقطت هيبتها من النفوس حتى ان خلقا من العرب خرجوا عليها ونزلوا في شاطئ الفرات وشنوا الغارة الشعواء على أهل السواد . وقد اشرت الي شيء مما كان بين فارس والروم . فاما خاقان ملك الترك الاعظم فقد سبق منا القول انه كان يهاجم الروم بقومه من شمال القسطنطينية وقد أراد ان يهاجمهم أيضا من جهة الجنوب حينما رأى اختلال دولة الفرس فارسل الى هرمز والى عظماء مملكته واساورة بلاده يؤذنهم باقباله و يقول : « رموا لي قناطر أنهار وأودية أجتاز عليها الى بلادكم واعقدوا القناطر على كل

(١) تجارب الامم اول ص ٤٠

نهر لاقنطرة له وافعلوا ذلك في الانهار والاودية التى عليها مسالكى من بلادكم الى بلاد الروم فانى مجمع على المسير اليها من بلادكم » فأنكر هرمز ماورد عليه من ذلك فأرسل رجلا من انجاده لمحاربته وصده عن بلاده وهو بهرام (چوبين) أو « شوبين » وقد عاد قائده مظفرا منصورا بعد ان قتل خاقان وأسر ابنه وحمل اليه من الاموال والجواهر والاوانى وسائر الامتعة مما غنمه وقر مائتي وخمسين الف بعير ثم دبت عقارب السوء بينه و بين هذا القائد العظيم . فتنكر لهرمز وجوه الدولة وأعيان الجيش فخلعوه كما قلنا وولوا بهرام هذا في خطب يطول

ولكن كسرى أبرويز بن هرمز اسقطه بمساعدة ملك الروم وجلس على عرش أبيه وقد أرسل اليه القيصر ثو بين فيهما علامة الصليب فلبسهما فقال الفرس « قد تنصر الملك » وحقدوا عليه بهذا السبب وفوق ذلك لم يحسن سياسة الجند فخالفوا عليه وانضم أكابر قواده الى ملك الروم ثم فسدت عليه نية ملوك العرب فزاد ذلك في اضطراب الامر بفارس وزاد شغب الامة علي كسرى أبرويز فقتلوه لتجبره واحتقاره العظماء وعتوه وذلك انه كان قد جمع من المال مالم يجمعه أحد من الملوك و بلغت خيله قسطنطينية وأفريقية وكان له اثنا عشر الف امرأة وجارية والف فيل الا فيلاً واحداً وخمسون الف دابة ومن الجواهر والآلات والاواني مايليق بذلك فعتا واستهان بالناس والاحرار فلذلك اكتسب عداوة أهل مملكته لامور وقعت منه :

أولا – انه أمر بقتل كل مقيد في سجونه وكان عددهم ٣٦٠٠٠ رجل ولكن الموكل بهذا الامر الفظيع توقف في تنفيذه .

ثانيا – انه احتقر الامة واستخف بعظمائها

ثالثاً – انه سلط عليها علجا يقال له فرّخان ضغط على الامة وشدد في استخراج بقايا الخراج بعنف وعذاب وكان ضمن من ذلك مالا عظيما

رابعاً – ان كسرى أجمع أمره على قتل فلّ الذين انصرفوا اليه من قبل هرقل فنذمر الناس وائتمروا عليه واجتمعوا على ابنه شيرويه Siroès الذى كان مسجوناً مع بقية اخوته في بابل وخلوا عن المسجونين في السجون واجتمعوا على الجنود العائدة من قتال الروم ثم أقبل شيرويه في جموعه على كسرى فانحاز الى باغ له بالقرب من قصره

يدعى باغ الهندوان فحبسه ثم قتله بعد حديث طويل .

وفي أيامه كانت الهجرة النبوية لمضي ٣٢ سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما من ملكه وقد هلك بعد ان ملك ٣٢ سنة . ولم يكتف شيرويه بقتل أبيه بل قتل سبعة عشر أخا له ذوي آداب وشجاعة بمشورة وزرائه فابتلى بالاسقام وجزع جزعا شديدا وكان يبكي الى أن رمى بالتاج عن رأسه وعاش مهموما حزينا مدنفا ومات بعد ان ملك ثمانية أشهر فملك بعده ابنه أزدشير ولم يبلغ أكثر من سبع سنين فاحتقره القائد المرابط على ثغور الروم وانكفأ بجنده الى فارس وملك عليها ولم يكن من بيت الملك فتخالف الناس عليه وقتلوه بعد أربعين يوما وملكوا بوران دخت (١) وهي بنت كسرى أبرويز فأحسنت السيرة وبسطت العدل وأمرت برم القناطر واعادة العمارات ووضعت بقايا الخراج وكتبت الى الناس عامة تعلمهم ماهي عليه من الاحسان وانها ترجو ان يريهم الله الرفاهة والاستقامة بمكانها ومن العدل وحفظ الثغور مايعلمون به انه ليس ببطش الرجال تدوخ البلاد ولا ببأسهم تستباح العساكر ولا بمكايدهم ينال الظفر ولكن ذلك كله يكون بالله عز وجل وحسن النية واستقامة التدبير . ولكي تستجلب مودة الروم وتذهب حفيظتهم عن بلادها ردت خشبة الصليب على ملك الروم ومضت اربها بعد سنة وأربعة أشهر فتولى الملك رجل من بني عم أبرويز وهلك بعد شهر فآل الملك الى اذرمى دخت اخت بوران دخت وكانت من أجمل نساء دهرها وكانت ملكة بحقها وصدقها لوساعدها الدهر والعمر ولكنها ملكت والدولة مدبرة باقبال دولة الاسلام فكثرت في أيامها الاحداث وتبسطت الايدى ومرضت السياسة ولقد طمع فيها أحد القواد وأراد أن يتزوجها فأرسلت اليه « ان التزويج للملكة غير جائز وقد علمت أن أريك فيما ذهبت اليه قضاء حاجتك منى فصر الى في ليلة كذا وكذا » وتقدمت الى صاحب حرسها ليرصده فلما أقبل قتله . وكان للرجل ابن عظيم البأس قوى النفس وهو رستم شجاع الفرس وفارس القادسية المشهور . فاقبل وقتل الملكة بعد ان سمل عينيها . ثم توالت الفتن والاضطرابات على من ولى أمر الفرس ممن تداول الملك بعدها من النسوان والصبيان

---

(١) دخت لفظ مأخوذ من دختر ومعناه البنت وعنها أخذ الانكليز لفظة "Daughter"

[illegible]

* * *

[illegible]

كله بغير أن تصحبه وتتلوه ضحايا وبلايا تختلف قلة وكثرة بحسب ماتصادفه من الاحوال . والعمدة كل العمدة انما هى على النتيجة فان كانت حسنة في مجموعها مفيدة في جملتها كان الانقلاب مستحبا والعاقبة مفيدة ولا عبرة بما أدى اليها مما قد كان يكون اجتنابه أولى . لكن طبيعة العمران تأبى ذلك لان الكمال محال

والناس من يلق خيرا قائلون له * مايشتهى ولام المخطىء الهبل

***

قام الاسلام أولا بالدعوة والارشاد والحض على مكارم الاخلاق فلقى في أول أمره من آل الشرك من الترات ماحمله على أن يثأر لنفسه منهم بعد ماشتد أزره وقوى أمره فأباد الوثنية من جزيرة العرب . فلم يبق لغير الاسلام فيها شأن وخصوصا بعد أن ارتد العرب على أثر وفاة النبي عليه الصلاة والسلام فان أبا بكر بذل همته ووجه قوته لاخضاع العرب كلهم الى كلمة التوحيد . ولذلك لا يسعنا بصفتنا من الناظرين فى أحوال العمران الا أن نقول ان الاسلام اضطر الى استعمال القوة في جزيرة العرب بعد أن أفرغ وسعه في الهداية بطريق الاقناع حتى لا تنقطع أوصاله ويتهدم كيانه وبذلك صفا له الامر وتوحد فيها دون سواه . أما حروب المسلمين (لاحروب الاسلام) بعد ذلك فقد كانت كلها بقصد التوسع في الملك والتبسط في الاستعمار .

لذلك يجوز لنا ان نقول ان انتشار الاسلام في غير جزيرة العرب يرجع معظمه بل كله الى الهداية والارشاد والاقناع والى انتشار العرب في البلدان يحملون آداب الاسلام التى وجدت في نفوسهم أهلا ومكانا سهلا لما فطرتهم عليه البداوة من علو النفس والشجاعة والمروءة فعاملوا الامم المغلوبة بالعدل والاحسان ـ بله أن الاسباب العمرانية والدينية كانت قد تهيأت كلها لسيادة أمم الجنوب لمجىء دورها في الظهور ـ ألا ترى أن المسلمين قد أقروا أهل الشام على أقاويلهم ولم يحاولوا نقل الفرس عن دينهم بل ان سعد بن أبي وقاص بعد ان فتح بلاد فارس أقام صلاة الجماعة في إيوان كسرى على مافيه من التماثيل والانصاب والاوثان مع ان الرسول عليه السلام كان قد ازالها من الكعبة ومن جميع أرض العرب حتى لا تفتنهم بالرجوع الى خرافات آبائهم . وهذه مصر وفتحها معلوم للخاص والعام فان المسلمين حاربوا الروم بقصد الامتلاك والحلول محلهم للثأر منهم وأما

القبط فابقوهم على دياناتهم واملاكهم وهـذه الاندلس وصقلية والقسطنطينية واليونان والمجر فاهلها بقوا على دينهم ونظامهم السياسى وانما تغيرت الحكومة والدولة

فالمبدأ الذى قام به الاسلام مع من يناصبه العداوة ويقطع عليه الطريق هو الجزية أو الاسلام أو الحرب ولقد دخل أكثر الامم في حوزة الدولة الجديدة ورضيت بالجزية حتى ان أكثر افرادها حينما رأوا قواعد الاسـلام واصوله مالوا اليه سواء كان ذلك من باب الاستحسان أو لاجـل التخلص من دفع الجزية فقد كان المسلمون يكتفون بالجزية اذا دانت لسلطانهم الامم بعد الحرب ولم تشأ ان تدخل في دينهم . والدليل على ذلك ان بعض الولاة قد تناسوا أوامر الدين فاستمروا على أخذ الجزية من بعض الذميين مع انهم دخلوا في دين الاسـلام وذلك لانهم خافوا من اضطراب الايراد واختلال الموازنة في ميزانية الدولة فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز الاموى استنكره وأمر برفع الجزية عمن يدخل في الاسلام سواء كان ذلك لاقتناعه به أو لاجل التخلص من هذه الجزية

وقد اقتدى به المولى أبو السعود حينما استفتاه السلطان العثمانى فى الزام أهل المجر بالاسلام أو ابادتهم فأنـكر عليه ذلك وقال بوجوب ابقائهم على دينهم ماداموا يؤدون الجزية لخزينة الدولة لان ماطمحت اليه نفس السلطان مخالف لاحكام الشرع ولروح الاسلام فأقرهم على دينهم ولغاتهم الوطنية الاهلية ولم يفعل آل عثمان مثل مافعلت دولة اسبانيا مع عرب الاندلس أو مثل ماتفعل بعض الدول الـكبيرة في ابادة اللغات الوطنية من البلاد التى أدخلتها تحت حكمها تسهيلا لسبيل ابتلاعها في جسم الامة الغالبة .

والخلاصة ان العامل الاكبر في انتشار الاسلام انما هو الاقناع والارشاد ومكارم الاخلاق . بل هـذه آيات القرآن اكبر شاهـد على ذلك . أليس يقول : « أدع الى سبيل ربك بالحـكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسـن » . أليس هو الذى يقول « لـكم دينـكم ولي دين » . أليس هو الذى يقول « لو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ويقول « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »

٭٭٭

أما الحرب فهي من طبيعة الانسان أو هي من المصائب الضرورية كما يقول علماء

العمران وأي دولة قامت قديماً أو حديثاً وتوسعت في العمران وتبسطت في الملك بغير الحرب ؟ على أن الاسلام لم يضطر الى الحروب في زمن مبلغه وأبي بكر وعمر الا ليثأر لنفسه من واتريه وليدفع عن نفسه أذاهم أما الحروب التي كانت من بعد ذلك فانما أشعل جذوتها المسلمون لا الاسلام على ان الامم التى خيم عليها الظلم ونخر جسمها الفساد كانت هي التى تتطلب تداخل الجيوش الاسلامية وتستنصرها على حكامها الظالمين كما حصل في اسبانيا . وكذلك الملوك كانوا يستنصرون بخلفاء الاسلام حينما تقوم عليهم رعاياهم كما حصل لامبراطور الصين في أيام العباسيين فانه استنجد بأحد الخلفاء فأرسل اليه جيشاً بقى افراده في بلاده وأوجدوا الاسلام وهم الى الآن من رجال الفضل والرياسة والجند الذى عليه المعول خصوصا في اقليم يون نان . وفضلا عن هذا وذاك فان تجار المسلمين لهم اليد البيضاء في نشره في قارة افريقا الى الآن بحسن سيرهم وبأخلاقهم الجميلة وبمعاملتهم الصادقة .

والخلاصة ان كل من يستقرى أخبار الفتوح الاسلامية من بعد النبي (ص) وأبى بكر وعمر يجدها كلها راجعة الى التوسع في الملك والاستعمار . هذا التوسع الذى تطمح اليه الامم الجديدة عند ظهورها في ميدان العالم . ذلك ناموس عمرانى خضع له العرب مثل ماخضعت له الامم القديمة والامم الحديثة . فان العرب عند مابرزوا من شبه جزيرتهم والتأمت جموعهم بفضل الاسلام انما قصدوا توسيع ملكهم لانهم اكتفوا بالجزية وأقروا الامم على أديانها . وانما حاربوا الشرك وعبادة الاوثان كما حاربوها فى بلادهم الاصلية . وأما الامم التى دانت لسيادة العرب فقد أثبتوا لها ديانتها ونظاماتها وا كتفوا منها بالخضوع السياسى . وهذا هو سر نجاحهم الغريب

٭٭٭

بهذه الاسباب المدنية الدنيوية انتشرت حضارة الاسلام في نصف قرن تقريبا من سواحل البحر الاطلنطى الى بلاد الصين ومن جبال قفقاسيا وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه

بهذه الاسباب دخلت في حوزة الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والاسبان والاهاند أي الهنود) ومن السلالة المسماة

بالتورانية وهم الترك والتتر

بهذه الأسباب دخل في الاسلام كثير من أمم الصين وملايو وانتشر في جزء كبير من جزيرة مدغشقر وجزائر الفيليبين ووصل الى روسيا وبولونيا فضلا عن انتشاره في هذه الايام بانجلترا وأمريكا بين أهلها الاصليين لا بواسطة النازحين اليها من المسلمين

مع هذا الانتشار الغريب العجيب بقيت أركان الاسلام الخمسة ثابتة لم تتغير وان كانت الفرق قد تعددت والاهواء تنوعت ولكن هذه الفرق كانت تظهر ثم تضمحل أو يقول بها نفر قليل ولكن الاسلامية بقيت في مشارق الارض ومغاربها تقول برأي الصدر الاول على وجه العموم نعم ان الملة حدث فيها انقسام كبير امتازت به الاقطار الشرقية وأعني بها التي شرقي بلاد العرب وهي فارس والهند فظهرت فيها الشيعة خصوصا في أرض فارس فقصلت الوحدة الدينية العامة الى حد محدود وذلك لان رد الفعل من السنن التي جبل الله عليها هذا الكون ولولا هذا الاختلاف لقلنا ان الجوهر الديني لا يزال واحدا منذ ظهور الاسلام الى الآن

أما الوحدة الادبية فعلى عكس ذلك بمعنى انها كادت تبلغ الكمال في أيام الامويين وفي صدر الدولة العباسية اذ كان لسان العلم والادب هو اللغة العربية. وكانت اللغات الاخرى مهملة وأصبحت عقيمة تجاه تيار العربية الغالب فدون المسلمون العلوم والآداب كلها بلسان العرب

* * *

قام النبي العربي بالتوحيد في السياسة وفي الدين وفي اللغة وبذل همه في توحيد بلاد العرب من الوجهة السياسية وتوصل الى شيء كثير من تحقيق هذا المطلب قبل أن ينتقل الى الدار الاخرى فجعل العرب أمة واحدة بعد ان كانوا أشتاتا بعضهم لبعض عدو وهي المزية الكبرى التي لم ينلها هذه البلاد منذ الخليقة مزية لا يسع المنصف الا أن يقف امامها في موقف الاعجاب والاكبار اذ ترتب عليها ظهور العرب بذلك الظهور وقيامهم بتلك الحركة العجيبة الخصبة التي أنتجت حضارة الاسلام

ان كانت هذه المزية مما لا يذكر له مثال سابق في التاريخ فهنالك مزية أكبر وأفخم وأعني بها مجيء محمد عليه الصلاة والسلام بالقرآن نترك الكلام على هذا

الكتاب المقدس من الوجهة الدينية و بطريقا من الجهة البشرية . ولقد أجمع أهل الرأى من أفاضل الافرنج وإن كانوا فى غنى عن هذه الشهادة . بأن القرآن هو الاساس الاول الذى أقيمت عليه معالم الحضارة الاسلامية فى مشارق الارض ومغاربها . هذا هو القرآن الذى أصبح بعد انتشار الاسلام اماما للامم الكثيرة المتنوعة التى سردنا أسماءها بحيث دعتهم الحاجة الى حفظه وفهمه أن يضعوا قواعد النحو وأن يدونوا علم اللغة ولذلك اجتهد السلف من هذه الامة في جمع أشعار العرب القدماء والمعاصرين له لمعرفة مفرداته وغريبه

لاجل حفظ القرآن وكتابته طلب النبى صلى الله عليه وسلم الى من لا يستطيع أن يفدى نفسه بالمال من أسارى بدر أن يفتدى نفسه بتعليم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة

لاجل فهم قواعد الدين من القرآن وضع المسلمون علم العقائد ثم علم الكلام

لاجل استخراج الاحكام من القرآن وضعوا علم الفقه

لاجل معرفة الحوادث المنصوص عليها في القرآن ضعوا علم التاريخ

لاجل معرفة المواقع المذكورة في القرآن اهتموا بعلم الجغرافية

ثم تسلسلت العلوم والمعارف بينهم حتى دخلت الفلسفة فى عصر العباسيين وترجموا كتبها ثم استغلوا بها و برعوا فيها غير ان الاسلام وحد اللغة أيضاً ثم نشرها وجعلها عالمية لغة عمومية يعرفها كل مسلم والمسلمون هم ثلث أهل الارض وهى مزية لم تبلغها لغة من اللغات . ولم تصل الى هذه المزية النادرة فى نظرنا بغير القرآن

يعلم القراء الكرام أن هذه المحاضرات الثلاث لعزتلو الفضال أحمد زكى بك أستاذ الحضارة الاسلامية خطب طلبة الجامعة اياها قبل عطلة عيد الاضحى المبارك التى بدأها بسفره الى دمشق الشام قاعدة ملك الامويين لدرس آثارها و مهمة مافيها ولترويض النفس من عناء الاعمال (وما أكثرها لديه) ولم يحضر حتى يوم طبع القسم العربى من هذا الجزء وقبل سفره ترك لمجلة الجامعة تلك المحاضرات فى أوراق مبعثرة كتب بعضها بخط يده وقد يصعب قراءته فى بعض المواضع وكتب بعض آخر بخط ناسخ لم يحرف كلما عن مواضعه فتحرينا الصواب فيها جهدنا ولم يمكن من عرضها عليه قبل الطبع لغيبته . فنرجو ان شاء الله أن تكون كما يريد الاستاذ الجليل

الحضارة الإسلامية

٥

قاعدة ملك الأمويين

أيها السادة كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم على بعد الأمكنة ووعورة الطرق وعدم ممهداتها ومذللات عقباتها من المراكب البخارية والكهربائية البرية والبحرية التي هي من أكبر عوامل انتشار المدنية الآن . كان سلفنا الصالح على تلك الحال يطوون الأباطح والجبال والكثبان والآكام لطلب مسألة واحدة من العلم يطلبها النابغة في علمه من عالم آخر نبغ فيما يسأل فيه وبذلك أينعت فروع العلم في القرون الأولى ونبغ أعلامه وصعب تصدر العلماء للتعليم إلا من راض نفسه وملأ رأسه وأعد لمنزلته السامية ما استطاع لها من قوة

وإذ إن الجامعة المصرية إنما أنشئت لإحياء ذكرى معاهد العلم والقائمين بها في تلك الأعصر الخالية التي هي من مفاخر الشرق كافة والإسلام خاصة أردت وأنا واحد من أساتذتها أن أحيي أكرم سنة من سنن سلفنا الصالح وهي الرحلة في طلب العلم لاقتناص فوائده وجمع شوارده بالبحث والمشاهدة ومشافهة أهل الذكر فاغتنمت فرصة عطلة عيد الأضحى المبارك لأضم فيها إلى علمي الكتابي الضئيل علما حسيا أشاهده بعيني وأسمعه بأذني وما كان في حسباني أن يمتد بي الزمن إلى هذا اليوم فأضيع على نفسي وعليكم الأسبوع الغائب برمته لولا أن عاقني الشغف بالعلم وحب التفهم إلى ذلك ويشجعني عليه ثقتي بأني إن شاء الله سأتدارك ما فات وأعوضه

* * *

ولعلي أيها السادة أبلغ ما قصدته من رحلتي هذه القصيرة وهو أن يضم المسافر ما إلى رياضته علما جديدا فإن الرياضة تحدث باشتغال الإنسان من عمل إلى عمل فإني إنما أردت سفري بادئ الأمر أن أفر من كثرة الأعمال التي أثقلت كاهلي فكادت تنوء به لولا رحمة من الله وبقية من الصبر والجلد وأبت نفسي اللوامة إلا أن تكون الرحلة إلى أول قاعدة لملك الأمويين لندرس معالمها ونفهم تاريخها من آثارها فسافرت إليها رغم

أني ولكنني والحمد لله غنمت غنمين غنم الرياضة وغنم التوسع في علمي القليل .

ولعلي كذلك أكون بسفرى هذا حاضاً لكم على الرحلة فى طلب العلم واسوة لمن يجيء جامعتنا المصرية من سائر البلاد المصرية لحضور محاضرة أو أكثر ولمن يأتيها فى مقبل أيامها من سائر أقطار المعمور

* * *

أراني بذكرى دمشق قد أحدثت في أنفس لكم رغبة في السؤال عن اختصاصي دمشق بتلك الرحلة التى جاءت على عجل ولكنني أثق بأن تلك الانفس لو رجعت الى المحاضرات الفائتة وأطالت النظر فيها لعرفت السر في هذا الامر الذى تريد أن تسأل عنه . ذلك انا ألممنا الماما ما في تلك المحاضرات بأحوال البلاد العربية قبيل ظهور الاسلام وأحوال الامة العربية بعد ظهور الاسلام و بأحوال أضخم الممالك عند ظهوره وانتشار الاسلام والحروب الاسلامية و بغير ذلك من الامور العامة ثم تخطينا عصر النبوة لانه عصر دينى محض شغل باعلاء كلمة الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قلنا قبلا . وكذلك تركنا عصر الخلفاء الراشدين الذي احتذى في بعضه عصر النبوة حذو القذة بالقذة وشغل بعض آخر بالفتن الاهلية والحروب الداخلية وأقبلنا إثر ذلك الى عصر الامويين الذى هو مبدأ الحضارة الاسلامية وفيه بالغ الملوك والسوقة في الترف والنعيم حتى نسوا أوامر الدين الحنيف ونواهيه .

فذلك الاقبال اضطرنا الى زيارة أول قاعدة لذلك الملك العضوض لنرى منشأ الحضارة الاسلامية ومصدرها . وكانت تلك القاعدة هي دمشق الشام التي هي بيت القصيد من هذه المحاضرة

دمشق هي قصبة الشام.قال ياقوت هي جنة الارض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعتها وكثرة فاكهتها ونزاهة رفعتها وكثرة مياهها .

وقال أبو بكر الخوارزمي . ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها كثرة الانهار بها وجريان الماء في قنواتها فقل أن تمر بحائط (يعنى بستانا) الا والماء يخرج منه في أنبوب الى حوض يشرب منه ويستقي الوارد والصادر . وما رأيت بها مسجدا ولا مدرسة ولا خانقاه الا والماء يجرى في بركة في صحن هذا المكان ويسيح في منصته

فيه . فبعث اليه بمال وآلات وعمال فبعث بهم الى عمر . وتجرد عمر بن عبد العزيز لذلك واستعمل صالح بن كيسان على ذلك ولما أمر بهدم بيوت أزواج رسول الله قال مارأيت يوما أكثر باكيا من ذلك اليوم . وكان فيما دخل المسجد من حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حجرة السيدة عائشة التي دفن فيها صلى الله عليه وسلم فدخل قبره الشريف من ذلك الحين المسجد على حين أنه لما توفى صلى الله عليه وسلم اختلف الصحابة في دفنه فقال بعضهم ندفنه حيث كان يصلي فقال بعض آخر معاذ الله أن نجعله وثنا يعبد وهو الذى حطم الاوثان وأزال الشرك وأباد الاصنام من جميع جزيرة العرب فخاف الصحابة من دفنه في المسجد ان يكون مدعاة للرجوع الى عبادة القبور أو من في القبور كما كان شأن الأمم الغابرة في تنظيم الصالحين ثم مدافنهم من بعدهم حتى تأدت الحال بالاعقاب الى تناسي الاصل الاول فعبدوا الاصنام والاوثان وأشركوا بين الواحد القهار فاتفقوا آخر الامر على دفنه حيث مات

وبينما كان الورع عمر بن عبدالعزيز يوسع الحرم النبوي في المدينة المنورة ويعمل بالقاعدة التي نسميها اليوم في قوانينا ونظاماتنا بنزع الملكية للمنافع العمومية كان الخليفة الاموى يبنى مسجد دمشق المعروف بالجامع الاموى وعند الشروع في بنائه جمع نصارى دمشق وقال لهم : انا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم (يعني النصف الذى بقي لهم منها عند الصلح) ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وان شئتم أضعفنا لكم الثمن وذلك عملا بقاعدة نزع الملكية للمنافع العمومية التي كان عمر وعثمان أول من جرى عليها في الاسلام . فأبوا فهدم وزاد في المسجد ماأراد وأسرف في انفاق الاموال على عمارته. يقال أن الوليد أنفق على عمارة المسجد خراج المملكة سبع سنين قيل وحملت اليه الحسابات بما أنفق على ١٨ بعيرا فأحرقها ولم ينظر فيها وقال شيء أخرجناه لله فلم نتبعه وقد اقتدى به في ذلك الاميرطيبرس حينما بني مدرسته التي بالجامع الازهر في مصر فضج الناس اكبارا لما أنفق الوليد وقالوا أخذ أموال المسلمين فانفقها فيما لايغنى عنهم من الله شيئا

وقيل ان عمارته لبثت تسع سنين وكان يعمل فيه عشرة آلاف عامل . فبلغ ما أكلوه من الخضر والبقول ستة آلاف دينار

* * *

ولقد جعل ذرع المسجد في الطول من الشرق الى الغرب ثلثمائة ذراع وعرضه مائتي ذراع أما سعة صحنه فهي مائة ذراع وأشيء في ذلك الصحن ثلاث قباب احداها وهي أكبرها في غربيه وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين حملت على ثمانية أعمدة من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقوفة بالرصاص والقبة الثانية من شرقيه وهي على هيئة الاخرى غير أنها أصغر منها وتسمى قبة زين العابدين والقبة الثالثة في وسطه وهي صغيرة من رخام عجيب محكمة الالتصاق قائمة على أربعة عمد من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد في وسطه انبوب نحاس يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين رهم يسمونه قفص الماء . ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب

وفي الجانب الشرقي من هذا الصحن باب يفضي الى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ويقابله من الجهة الغربية موضع يقال ان عائشة رضي الله تعالى عنها سمعت الحديث هنالك وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها امام الشافعية وفي الركن الشرقي منها ازاء المحراب خزانة كبيرة كان فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئا وعن يسار المقصورة محراب الصحابة وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم

ورفع سقف المسجد على أعمدة من الرخام مؤلفة من طبقتين الطبقة التحتانية أعمدة كبار والفوقانية أعمدة صغار وفي خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا عرفها الصناع مصورة بالذهب والفسيفساء وهي فصوص من ذهب يخالطها أنواع الاصبغة العربية الحسن وهي معروفة بالفص والتفصيص وبالزليج وقد عرفت بذلك عند أهل اسبانيا فقالوا ازوليجو Azulejo واسمها عند الفرنسيس Mosaique

وفي قبلي المسجد امام المحراب قبة من رصاص وهي المعروفة بقبة النسر وكأنهم شبهوا المسجد بنسر وهي رأسه وليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظرا منها وهي محمولة على ستة أعمدة قد صور فيها أشكال محاريب وسواها .

وقد رصعت محاريب المسجد بالجواهر الثمينة وعلق عليه قناديل الذهب والفضة .

وشق فيه أربعة أبواب . باب فى قبليه و يعرف بباب الزيادة و بأعلاه قطعة من الرمح الذى كانت فيه راية خالد بن الوليد ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب الى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهى سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي وهي من أحسن أسواق دمشق و بموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس وصار مكانها سوقا

و باب في شرقيه وهو أعظم أبواب المسجد و يسمى باب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين و بازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبدالعزيز و به ماء جار وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجذوع طوال و بجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعية وسائرها لاصحاب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضى وسائر الشهود متفرقون في المدينة و بمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الورق والاقلام والمداد وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لاسقف لها تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض انبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والابواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الاخضر ظاهرا والظاهر الاصفر باطنا

و باب في غربيه يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه و باعلاه باب يصعد اليه في درج له

وهذا ممـا يدل على سرعة ايغال العرب في الحضارة حتى بذوا فيها أهـل عصرهم سرعة لم يعهد لها نظير في تواريخ الامم المتحضرة .

ولم يزل ذلك المسجد على تلك الصورة التي تملأ العـين حسنا وبهاء الى أن أشعلت فيه النيران سنة ٤٦١ هـ فأذهبت بعض بهجته

ومما يروى أن عمر بن عبد العزيز لما ولي ملك بني أمية قال اني أرى في أمـوال مسجد دمشق كثرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما أنا مستدرك منها فيرد الى بيت المال لكنت أنزع هذا الرخام والفسيفساء وأنزع هذه السلاسل وأصير بدلها حبالا فاشتد ذلك على أهل دمشق فأبلغوه اعظام الروم لهذا المسجد فترك ماهم به .

هذا ما كان عليه مسجد دمشق وتلك حاله غـير أن الذى يؤسفنا ويؤلمنا أن هـذه الصفات البديعـة لا يوجـد منها الآن شيء مذكور اللهم الا ما كان من آثارها التي تدل عليها .

* * *

وقد زرت بعلبك لعلاقتها بحضارة الاسلام وهي مدينة قديمة مشهورة في سوريا في الجهة الشمالية من سهل البقاع قرب الجبل الشرقي المعروف بعصاقب لبنان

وبعلبك كما وصفها المؤرخون كانت قبلا من أجل المدن لوقـوعها بين صور وتدمر والهند فكانت محط القوافل التجارة . وهي احدى مدن فينيقية اللبنانية في عهد الرومان على مسافة واحد وثلاثين ميلا من دمشق الى الشمال الغربي واثنين وثلاثين ميلا الى طرابلس ومائة ميل وتسعة أميال الى تدمر

أما الآن فهي قصبة قضاء تتبع ولاية دمشق وفيها كرسي أسقف للروم الكاثوليك وآلاى لعساكر الرديف وادارة بريد وبرق وموقف للسكة الحديدية بين رباق وحلب وعدد سكانها يبلغ خمسة آلاف النصف شيعة (متاولة) والربع من أهل السنة والربع الآخر مسيحيون منهم ألف روم كاثوليك ومائة موارنة ولهم رئيس أساقفـة وخمسون روم أرثوذكس

وفيها مسجدان لاهل السنة أحـدهما يعرف بالحنبلي جدد بناءه السلطان قلاوون سنة ٦٨٢ هـ والآخر جدد بناؤه سنة ١٣٢١ هـ وفيه مأذنة بنيت في أيام الملك الصالح

أبي الفداء اسماعيل سنة ٦٣٨ وهو بقرب الهيكل المستدير ومسجد للشيعة بناه سابقاً الامير يونس الحرفوش سنة ٩٦٢ ه وجدد بناؤه سنة ١٣٢٥ ه وفيها مسجد كبير خرب كان فيما سلف على مايظهر كنيسة للقديس يوحنا فحولها المسلمون مسجداً وكان المسجد الاعظم في عمرانه ولكنه لم يبق الآن غير سقفه وهو في داخله ذو ثلاثة صفوف من الاعمدة القصيرة بعضها من حجر الجرانيت وبعضها من حجر أصم وعلى أكثره تيجان قرنثية تحمل أقواساً قنطرية يرتكز عليها السقف وقد وضعت العمد بلا ترتيب ولا نظام فأكثرها وضع على الارض بلا قواعد وبعضها يحمل تيجاناً لا تناسب حجمه ويرجح أن العرب نقلوها من أعمدة الهيكل في القلعة بعد أن قطعوا شيئاً من طولها ويفصل المسجد عن الدار التي بجانبه صف من الركائز المربعة ذات الاقواس وهناك على ركيزة في الوسط جرن الماء عليه قوس عربية وكان تحته حوض لقبول الماء ويظن أن الجرن أخذ من الكنيسة القديمة حيث كان للمعمودية وبجانب هذا المسجد دار فسيحة مربعة يحيط بها رواق من القناطر من الشرق والشمال والغرب لم يبق منه سوى قنطرتين في الجهة الشمالية ووراء الرواق من الشرق غرف كانت للمدرس وعلى أبوابها كتابات عربية وفي وسط الدار بركة للماء كان على جوانبها الاربعة أعمدة تحمل قبة ولم يبق من ذلك الا الاثر

وأكثر أهل بعلبك زراع وفيها بساتين حسنة تحيط بها ونبعها المسمى (برأس العين) من أجمل المتنزهات في سوريا فهو روضة أنيقة مياهها كالفضة وليس فيها من عيب الا انها راكدة وفي رأس العين مسجد ينتهي بناؤه الى زمن الظاهر بيبرس البندقداري في سنة ٦٧٦ ه وهو فخم جليل ولكنه متخرب مثل مسجده بالقاهرة في الجهة المعروفة باسمه

وكان هناك آثار مدرسة قديمة لم يبق منها بيد الجهل غير حجر عليه كتابة عربية نقل اليها من المسجد

وكانت هذه المدينة من أعظم المدن السورية وأشدها منعة وحصانة وحولها الى الآن آثار أسوار كانت تحيط بها وفيها آثار يسعى السائحون سنوياً اليها لرؤيتها ومن تلك الآثار قلعتها التي هي من أعجب مباني الدنيا وأبهج الآثار ومن تلك الآثار التي كادت تندرس معالمها هياكل جليلة أشهرها هيكل الشمس الذي كان من أجمل

أسباب عمران بعلبك وتقدمها لكثرة وفود الزائرين اليه وكان له احتفال من أبهج الاحتفالات وقيل حمل الى ذلك الهيكل تمثال الشمس الذي سمي به من مصر وهو يشبه تمثال أوزيريس وقيل ان انطونيوس بيوس هو الذي رممه وزينه سنة ١٦ ولما انتشرت الديانة المسيحية في الشرق هجرت كل الهياكل الوثنية الا هيكل الشمس فانه جعل كنيسة مسيحية وذلك في أيام قسطنطين بن هيلانة الذي نصر وأخذ خشبة الصلب من بيت المقدس وبقيت بعلبك زاهية زاهرة الى أن فتحها المسلمون سنة ٦٣٥ فدافع أهلها دفاعا حسنا وبقيت أكثر من قرن مركزا عظيما للتجارة الى أن استبيح دم أهلها فقتلوا على عهد الامويين ونهبها تيمورلنك سنة ١٤ م وتم خرابها بزلزلة هائلة سنة ١٧٩٩ م

أما قلعة بعلبك فهي هيكل الشمس الذي ذكرناه حوله المسلمون قلعة حينما حدثت الحروب الصليبية فان السلطان صلاح الدين ذهب الى بعلبك ووجد هذا الهيكل أمنع حصن فحوله الى قلعة ورفع فوقه أحجارا من غير نظام للسرعة جعلت مأوى لجند المسلمين يرمون منها الاعداء وهي المعروفة الآن بالقلعة التركية بالمزاغل

وفي تلك القلعة أعمدة من الصوان أو الجرانيت أخذت من اسوان فدل هذا على قدرة في حمل الاثقال ونقلها من أقصى الصعيد على رواميس على النيل ومنه على بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) حتى طرابلس الشام ومنها على عجلات تجرها جمال لسان على الطرق الرومانية التي وجد الباحثون آثارها حيال بعلبك

وعلى تلك الاعمدة أجل ما يستطيع أن يصنعه صانع من النقوش البديعة الدقيقة التي تسمى (التنتلة) وتلك النقوش تشهد بأنها لم تصنع الا بعد أن رفعت هذه العمد الى ذلك المكان الذي هي فيه لانها لم تكسر مع شدة ارتفاعه الهائل ويؤكد تلك الشهادة ان ذلك النقش لم يتم وكأني بالملك قسطنطين لما تنصر أوقف العمل في هذا النقش لان على تلك العمد كتابة تدل على انتشار النصرانية هناك

ثم بنى المسلمون في ذلك الهيكل أو تلك القلعة مسجدا يشبه مساجد مصر وفيه بئر يسميها مؤرخون من العرب بئر الرحمة لانهم يزعمون أن ماءها كان يفيض اذا حاصر الصليبيون القلعة فاذا ما قطعوا من حولها هبط الماء ولقد علل هذا الاعتقاد سوري عالم أديب فقال ان المسلمين أحاطوا تلك القلعة بخندق كانوا يملئونه ماء اذا حاصرهم

الصليبيون فسر الماء الى البئر من جوف الارض فيملؤها فاذا مادهموا رفع المسلمون الماء من الخندق ليفرجوا عن أنفسهم فعل ماء البئر وهذا معقول وصحيح وحق لهم أن يسموه بئر الرحمه غير انهم أخطئوا فى تعليل ذلك اذ قالوا بانه من الخوارق والحقيقه ان ذلك النقص والفيض مظهر من مظاهر الناموس الطبيعي المعروف فى علم الطبيعه

وعلى ذكر الحروب الصليبيه وآلات القلعه الاسلاميه نقول ان الصليبين كانوا يعملون أبراجا من خشب متنقله يسمونها (الدبابات — والسكوس) وكانوا يسيرونها لرمي الاعداء المستترين فى أعالى القلاع

٦

تتمه المحاضره الماضيه

هذا وقد زرت أيضا مدينه صيدا الشهيره فى فلسطين

دعانى الى زيارتها داعيان الداعي الاول توقع ماقد يكون فيها من آثار الحضارة الاسلامية والداعى الآخر وهو أجلها عندى هو البحث عن كتاب جليل القدر عالى الشأن يعدمن مفاخر الامة الاسلامية ويدل على مقدار رقيها وحضارتها وصرفها في العلم بسهام نافذه وذلكم الكتاب الذى سارت بذكره الركبان وملأ بريد ذكره الآفاق هو

«كتاب نهاية الارب في فنون الادب» في ٣٠ جزأ لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبدالدايم البكرى التميمي القرشى النويرى المصرى المولود بالنويرة من أعمال مديرية بني سويف المتوفي فى ٢١ رمضان سنه ٧٣٣ ه وقيل سنة ٧٣٢ ه

هذا كتاب يصدق عليه دون سواه أن يقال عنه انه جمع فأوعى وانه لم يترك شاردة من فنون الادب الا تصيدها ولم يغادر وارده من موارد العلوم الا قيدها ولا فائدة من فوائد التاريخ الا دونها فهو حسنة الحسنات التى ناقت الافتخار بها ويحسن التناصر على ابرازها خصوصا وان مؤلفه من أبناء مصر الذين نبغوا فى أيام المماليك على عهد السلطان محمد قلاوون وكان من أركان دولته وأساطين حكومته وكان معاصرا لابن

فضل الله العمري وللسلطان أبي الفدا صاحب التاريخ والجغرافيا وغيرها من فحول الاسلام الذين تفتخر بهم مصر والشام . فلذلك تيسر للنويري المطالب وتوفرت لديه الموارد فتمكن من جمع هذا الكتاب في ثلاثين جزأً يفي كل واحد منها بالمرام بحيث لا يبقى بعده حاجة في نفس المطالع أو الطالب

ولكن الزمان أخنى على هذا الكتاب الجليل في جملة ما أباده من آثار مصر فسطت عليه الايدي وتلقفته الامم وتخطفته الكتبخانات الاجنبية فتفرقت أجزاؤه في كل قطر ونقيت مصر وحدها محرومة منه اذ لا يصح الاعتداد بالقطعة الصغيرة الباقية في الكتبخانة الخديوية وهي الجزء الثاني والعشرون ا فقط وذلك لانه مع كثرة البحث ومواصلة التنقيب لم يظهر لهذا الكتاب أدنى أثر آخر في دور الكتب ومعاهد العلم بديار مصر ولا عند الافاضل الذين توفروا على جمع الكتب والاحتفاظ بنفائسها .

وقد تولت البحث عنه في مكاتب أوروبا المعروفة أثناء رحلاتي العلمية وواصلت السعي منذ سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٤ فعرفته مكانه في القسطنطينية ورومية وويانة ولندن وليدن وباريس ومدريد وأكسفورد وبعث بعض المعلومات اللازمة عنه للتنبيه عليه والتعريف به وتيسر لي الاحاطة بكل ما يتعلق بهذا الكتاب واجتمعت لدي الوسائل التي توصل الناطقين بالضاد ونصراء المعارف من غيرهم للحصول على هذا الكنز العظيم الخطير ومن تمام حسن الحظ أني عثرت أخيرا في مكتبة الغيور حضرة الماس أغا صبري باش أغاي السراي الخديويه على الجزء الاول والثاني من نسخة جليلة

(١) أصله كما قيل في طرته من كتب « الفقير مصطفى بهجت القاضي بمصر المحروسه عمر له سنة ٢٨٨ » أي بعد الالف وهو يشتمل على البيان الخامس من الفن الخامس من القسم الخامس في أخبار ملوك الاندلس من العلويين والامويين ومن ملك بعد بني أمية الى انقراض الدولة العباسية والباب السادس منه في أخبار أفريقية وبلاد المغرب ومكتوب في آخر هذا الجزء يتلوه ان شاء الله تعالى في أول الجزء الثالث والعشرين من الباب السابع من القسم الخامس من الفن الخامس في أخبار من طلب الخلافة من الطالبين في الدولة الاموية والدولة العباسية فقتل دونها وذلك الجزء مكتوب بقلم معتاد وعدد أوراقه ٢٤٢ ورقة

صحيحة مضبوطة مكتوبة في سنة ١١٧٦ هـ برسم فخر العلماء وتاج الادباء المرحوم محمد راغب باشا الصدر الاعظم صاحب السفينة المشهورة وغيرها من جلائل المصنفات فأعلمت حضرة الباشا أغا بمساعي في اقتصاص أثر هذا الكتاب وما يترتب على نشره من المفاخر والفوائد فبادر وقدمها الى لاستخدامها عما فيه المصلحة العامة لكي تتيسر التعجيل بطبع الكتاب والشروع في تعميم هذه المنفعة الجليلة

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن هذا الكتاب كان موضع عناية خصوصية من أمراء الدولة العلية العثمانية وصدورها العظام فان الصدر الاعظم محمد باشا الكوبريلي نقله لنفسه بطريقة تبعث الغاية في السرعة . فقد ثبت لي من البحث والمراجعة أنه أخذ نسخة كاملة وفرق أجزاءها على جماعة من النساخين وأعانهم من الشاويشية فاجتمعت لديه نسخة كاملة في أقرب وقت ولكنها لاختلاف النساخين وجهلهم بالعلم وباللغة العربية جاءت سقيمة محرفة مشوهة في كثير من المواضع وهي محفوظة بكتبخانته في القسطنطينية ومثلها في العناية القاضي صاحب النسخة التي في كل جزء واحد منها بالكتبخانه الخديوية . أما في عصر المؤلف فقد كانت العناية بهذا الكتاب بالغة حدها فان امراء مصر استنسخوه كثيرا وحبسوه وقفا في اكثر مساجد ومدارس القاهرة كما يظهر من الاجزاء المفرقة في الاستانة وغيرها من عواصم أوروبا

ولأجل بيان ما حواه هذا الكتاب الجامع من المباحث والمطالب نقول ان مؤلفه رتبه على خمسة فنون حصر فيها كل أنواع العلوم من معقول ومنقول

الفن الاول — في السماء والآثار العلوية والارض والعالم السفلي

الفن الثاني — في الانسان وما يتعلق به

الفن الثالث — في الحيوان الصامت .

الفن الرابع — في النبات (ويدخله علم الطب)

الفن الخامس — في التاريخ .

قسم المؤلف كل فن الى خمسة أقسام وتحت كل قسم أبواب تنطوي على جملة فصول ومباحث ومطالب .

من موجبات الغرابة بل من دواعي الحيرة والأسف أن الاجانب كانوا اهتدوا الينا

بحيازة هذا الكنز الثمين قد امتازوا علينا أيضا بالاستفادة منه واستثمار مزاياه أما نحن معاشر المصريين أصحاب الشأن الاول في هذا الميراث الجليل فقد بقينا الى الآن على جهل تام بمواضع هذا الكتاب وبموضوعاته مع ان أسلافنا عرفوا مكانته ومزيته فاستقوا من بحره الطامي وشادوا به لانفسهم ذكرا عاليًا في الخافقين مثل صاحب بهجة الزمن في تاريخ اليمن ومثل القلقشندي صاحب كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشا ومثل ابن شاكر فخر الدين محمد الكتبي صاحب فوات الوفيات فانه ألف تاريخا كبيرا سماه عيون التواريخ في كتبخانة باريس جزآن منه وهما الثالث وفي آخره ٩ ورقة تحتوي على أول غزوات المسلمين وحروبهم في الاندلس والثامن وفي آخر ١٣٣ ورقة تحتوي على تاريخ بلاد المغرب منذ فتحها المسلمون الى أن ملكها السلطان الموحدي المستنصر بالله أبو يعقوب يوسف بن الناصر محمد وكل ذلك منقول عن النويري وفي كتبخانة باريس أيضا تحت نمرة ١٥٧٧ جزء يحتوي على اختصار من تاريخ النويري ولم يذكر صاحب الاختصار اسمه وهذا الجزء يحتوي على تاريخ الموحدين بالاندلس وافريقيا وفتح مراكش وعلى شيء كثير غير ذلك من التاريخ والادب وفي مكتبة اكسفورد احدى مدينتي العلم ببلاد الانكليز كتابان عربيان مخطوطان تحت نمرة ٤٠٤ و٤٠٥ وليس لهما عنوان ولم يذكر المؤلف اسمه وفيهما شرح أسماء لغوية وجمل وأقوال وذكر بعض المواضع التي حصلت بها أكثر الحوادث في التاريخ وغير ذلك وقد اعتمد المؤلف في ذلك كله على النويري وكذلك صاحب شفاء الغليل ولكن العالم المحقق الشيخ نصر الهوريني لم يصحح اسمه فتركه بهامه لا أدري لانه وهو علامة مصر لم يطلع على الكتاب

أما علماء الافرنج الذين اقتبسوا من أنوار هذا الكتاب واهتدوا بمعالمه وأفاضوا في النقل عنه والاعتماد عليه والرجوع اليه فهم كثيرون نخص بالذكر منهم من يأتي

أولا العلامة السويدي أوتو (Otto) المتوفى سنة ١٧٤٨ كتب مؤلفا وافيا على ما ذكره النويري عن فتح المسلمين لبلاد أفريقيا الشمالية

ثانيًا العلامة الهولندي البرت شولتنس (Albert Schultens) المتوفي سنة ١٧٥ فقد استخرج منه ما يختص بتاريخ اليمن وما كتبه قديما وكتب في ذلك تاريخا مفيدا

وله كتاب آخر في آثار العرب القديمة نقل فيه فصولا أخرى عن النويري وعنوان التاريخ Historia imperii vetustissimi Joctanidarum in Arabia Felice وعنوان كتابه في الآثار Monumenta vetustiora Arabum

ثالثا — العلامة الالماني رسك (Reiske) المتوفي سنه ١٧٧٤ فانه ترجم الى اللغة اللاتينية كل ما أورده السلطان أبو الفدا عن وصف بلاد الشام في جغرافيته المسماة بتقويم البلدان ثم عقب هذه الترجمة برسالة لاتينيـة للتعريف بكتاب كشف الظنون عن أسماء الـكتب والفنون وضمنها بيان كل ما في موسوعات النويري من المطالب والابواب وجعلها كفهرست تحليلي تفصيلي لتسهيل الوقوف على ماحوته من أنواع العلوم والآداب وجعل عنوان هذه الرسالة Prodidagmata ad Hadji-Khalfæ tabulas

رابعا — العلامة الدانيمركي راسموسن (Rasmussen) المتوفي سنة ١٨٥٠ ألف باللغة اللاتينيه كتابا في تاريخ الاسلام والخلفاء ثم جعل له ذيلا في تاريخ العرب قبل الاسلام اعتمد في كل منهما على النويري وخصوصا في الذيل . وعنوان الـكتاب Annalis islamismi, sive tabulæ synochronisticæ-chronologicæ chalifarum وعنوان الذيل Additamenta ad historiam Arabum ante Islamum, ex Nove ien excerpta

خامسا — السياسي الطليـانى جريجوريو روزاريو (Gregorio Rosario) ترجم الى الطلياني كل ما كتبه النويري على جزيرة صقليه أيام كانت في حكم المسلمين في كتابه الذي سماه Collezione di cose arabe-siciliane وطبعه في بالرم عاصمة صقلية سنه ٧٩

سادسا — العلامة الالماني أتشهورن (Eichhorn) المتوفي سنه ١٨٢٧ نقل الى اللغة اللاتينيه كل ما كتبه النويري فيما يتعلق بتاريخ العرب قبل الاسلام في كتابه المسمى Monumenta antiquissima historiæ Arabm

سابعا — العـلامه الفرنساوي كوسان الوالد aussin le pere) المتوفى سنه ١٨٣٥ فقد ترجم ما كتبه النويري على تاريخ جزيره صقليه (وقد ضبطها ابن خلكان بفتح الصاد والقاف ولـكن الـكسر فيهن اصوب واقرب للاسم الافرنـكى)

ثامنا — العلامـه الفرنساوى الـكبير المشهور في المشارق والمغارب وهو البارون

سلفستر دوساسي Baron Silvestre de Sacy المتوفى سنة ١٨٣٨ استخرج من نهاية الأرب كل ما يتعلق بالدروز ونقله الى الفرنساوية ووضعه مترجماً في كتابه الحافل الذي يكمل شرح احوال هذه الطائفة ودياناتها (Exposé de la religion des Druzes)

تاسعاً — العلامة الالماني هامر بورجستال Hammer-Purgstall المتوفى سنة ١٨٥٦ نقل عنه صورة المناشير السلطانية والمراسيم الملوكية التي اصدرتها الدولة المصرية ببيان الملابس التي لزم اهل الكتاب ان يتزيوا بها

عاشراً — العلامة الفرنساوي نويل دي فرجير (Noel des Vergers) المتوفى سنة ١٨٦٧ كتب بالفرنساوية تاريخ جزيرة صقلية في أيام دولة الاغالبة أي بني الاغلب وسماه Histoire de la Sicile sous les Aghlabites وأورد فيه باللغة العربية كل ما ذكره النويري على هذا الموضوع وترجمه الى الفرنساوية

حادي عشر — العلامة الفرنساوي الدار الايرلندي الاصل البارون ده سلان (Baron de Slane) مترجم تاريخ ابن خلكان الى اللغة الانكليزية ومقدمة ابن خلدون الى الفرنساوية المتوفى سنة ١٨٧٨ نقل عن نهاية الأرب تاريخ افريقيا الشمالية الى اللغة الفرنساوية

ثاني عشر — العلامة الهولاندي المتبحر في معارف العرب والمشرقيين رينهارت دوزي (Reinhart Dozy) المتوفى سنة ١٨٨٣ استعان بهذا الكتاب كثيراً في تأليف قاموسه المسمى تكملة المعجمات العربية Suplement aux dictionnaires arabes

ثالث عشر — العلامة الفرنساوي ده فرمري (Defremery) المتوفى سنة ١٨٨٣ نقل الى الفرنساوية ما رواه المؤلف من الحكايات والنوادر التي وقعت للسلطان بيبرس

رابع عشر — العلامة ميشيل اماري Michel Amari الطلياني الصقلي المتوفى سنة ١٨٨٩ جمع كل ما كتبه مؤرخو العرب على جزيرة صقلية وطبعه في كتاب عربي ثم ترجمه في مجلدين الى اللغة الفرنساوية وقد اكثر فيه من النقل عن النويري

وحسبنا ذلك الآن دليلاً على ما حواه تلقاء هذا الكتاب اللذان خصصهما المؤلف رحمه الله لفن التاريخ بكلياته وجزئياته وأما السبب الآخر أي العشرة الاجزاء الاولى فليس لدينا وقت الآن للتعريف بها والتنويه عنها وبيان الأسلوب الذي اتبعه

[illegible]

الكتاب وموضعه فهممت ببلوغه وعرجت على صيدا رجاء أن انالهغير انني بمزيد الاسف اخفقت في مسعاي ولم أجد منه الا مقدار ماهو عندي منه . ولم تفتني رؤية صيدا نفسها فرأيت فيها آثاراتدل على انها كانت محصنة منيعة فهدم السلطان صلاح الدين الايوبي في الحروب الصليبية اسوارها وحصونها خوفا من امتلاك الصليبيين اياها وتحصنهم فيها ولكن بقاياها تدل على منعتها فان شوارعها متعرجة وكلها مبنية بالحجر الجامود على هيئة القبو وقد يدخل نصف القبو في المساكن لتكون الشوارع ضيقة فلا يتمكن العدو من امتلاكها على فرض انه دخلها وامتلك اسوارها

الحضارة الاسلامية

٧

ثلاثة أجوبة

أيها السادة . انما العصمة لله ولكتاب الله . فليس لانسان مهما ضرب في العلوم بسهام نافذة وكان أوفر الناس عقلا وأدقهم بحثا وتنقيبا وأعلاهم كعبا أن تدفعه الاماني الى طلب تلك العصمة . فالخطأ لابد منه لكل انسان . ولم يسلم منه امام من ائمة سلفنا الصالح على علو منارهم وجليل اقدارهم وحسبنا أسوة من هؤلاء الاجلاء الامام الفقيه مالك بن أنس عالم المدينة الذى كانت العلماء تنكمش فى حضرته في أركان ثيابهم فانه جمع في موطئه ستمائة ألف حديث ثم تخير منها ستمائة فقط . وقد ذكر الامام الشافعى عالم مكة رضى الله تعالى عنهما هذا الموطأ فقال : هو اكثر الكتب صوابا « فأثبت » له الخطأ مع ذلك التحرى والتمحيص من صاحبه .

والذى يفضل به بعض الناس بعضا انما هو قلة الخطأ والرجوع الى الصواب متى وضحت محجته وأضيئت منارته . والانسان لايعلم انه مخطىء حين يخطىء والا لما أخطأ فان انسانا أوتي ذرة من العقل لايرضى لنفسه النقص . فلا بد من أن ينبه بعض الناس بعضا الى الخطأ .

هذا والعلوم النقلية التى تصدرنا للكلام في فرع منها وهو الحضارة الاسلامية لامجال للعقل فيها اللهم الا في الاستنباط . ونحن نجمع أشتات محاضرات هذه الحضارة من كل ما كتب فيها باللغتين العربية والفرنسية الا قليلا مما يجوز أننا لم نظفر به ولا نروى من هذه الكتب الا كلام الثقات .

ولقد نبهني منبه في صباح هذا اليوم الى رسالة منشورة في (الجريدة) الغراء لصديق لى من الفضلاء ينكر فيها أمرين مما جاء في المحاضرات الماضية وفي خطبة افتتاح الجامعة" الامر الاول حقيقة ألف القنطار من الذهب التى دفعها ملك الروم الى ملك الفرس ليرحل عن بلاده . والامر الثانى ثلاثة الملايين من المجلدات التى كانت في خزانة الكتب بطرابلس الشام .

[illegible]

Talent ويقدر ما أن يسرا أكبر تالنت عند الروم وهو المنسوب لبلاد أتيكه . فمن المعلوم أن مبلغه ٧٥١٠٠ فرنك ان كان من الفضة وخمسة عشر أمثال هذا المبلغ ان كان من الذهب أي يكون التالنت الذي يعبر عنه مؤلفو العرب بالقنطار يعادل ١١١٢٥١٠٠ فرنك ويكون ألف التالنت أو ألف القنطار من الذهب عبارة عن ١١٢٥ ٠٠ ٠٠ فرنك أو ٤٥٠ ٠ ٠ جنيه وهو أكبر من التقدير الاول المعول عليه عند العرب ولكنه أقل من الغرامة التي دفعتها فرنسا (وهي أصغر من دولة الروم) الى ألمانيا (وهي أصغر من دولة الفرس) ومعلوم ان الغرامة الافرنسية هي ٥١ ٠١ ١ خمسة مليارات من الفرنكات أو ٢ ٠ مائتا مليون جنيه وهذا المبلغ من الجنيهات يزن ٨٨١٨٨٨ قنطار على التقدير الرومي فأين منها الف القنطار التي كانت محلا للاستغراب والاستنكار ليت شعري ماذا كانوا يقولون لو اعتبرت أحوال هذه الايام وقلت ان الغرامة المذكورة كان شحنها يستوجب خمسة قطارات من قطارات البضائع وكل قطار يتألف من خمسين عربة كبيرة ولكن الناس لو علموا أن خمسة المليار من الفرنكات تزن ٢٥ مليون كيلو جرام ثم قسموه على مائته الطونولاته من الكيلو جرامات وهو ألف كيلو لكان الناتج هو ٢٥ ألف طن وإذا كانت حمولة العربة من السكة الحديد ١٠ طن يكون اللازم من العربات لحمل هذه الغرامة ٢٥ عربة ولو فرضنا ان القطار من السكة الحديد خمسون عجلة لكان عدد القطر التي تحمل هذه الغرامة ٥ قطارا

فما دفعه الروم للفرس وأنكره مصنفهم هو بالنسبة لهذه المقادير يكاد ألا يكون شيأ مذكورا . ونحن نرى كثيرا من الاشياء الصحيحة مالا يكاد يصدقه العقل لولا الوثوق من ثبوتها . فمن ذلك ان الانكليز في حرب البوير بالامس خسروا زهاء مائتي مليون جنيه انكليزي أو ٨٨١٨٨٨ قنطارا على التقدير العربي تقريبا و ٤١٤٤٤ قنطار على التقدير الرومي تقريبا . ومن ذلك شركة الجعة الملوكية (أي جعة عمل الجعة) وهي شركة امريكية تنفق في كل سنة على طبع الاعلانات فقط مبلغا وقدره ٣٥٧ ٠٠ من الفرنكات أي ١٤٢٨ ٠٠ من الجنيهات وهي تزن ٦٣ قنطارا عربيا تقريبا أو ٣١٥ بثلاثة قناطير ونصفا رومية وهي شركة صغيرة مؤلفة من آحاد الامة .

وهذه شركة الزيوت الامريكية حكم عليها منذ يومين بغرامة قدرها مليون ريال وربع مليون كما جاءت به التلغرافات أي ١٠٠ ٢٥ جنيه تقريبا أو ١١١ قنطارا عربيا تقريبا أو ٥١٥ قناطير ونصف قنطار رومى تقريبا .

ومما يجدر ذكره ما كان عقب الحرب بين فرنسا والمانيا فان قصر التويلرى المشهور في باريس تهدم فجاءهم امريكى وعرض على الدولة الفرنسية ترميم هذا القصر ولم يطلب في نظير ذلك سوى تخصيص غرفة له فيه وحضوره كل الاحتفالات التى تقام فى البلد وقدم لذلك بيان النفقة اللازمة لاعادة البناء وقدرها سبعة ملايين من الفرنكات أى ٢٨٠١٠٠ جنيه او ١٢٤ قنطارا عربيا تقريبا أو ٦ قناطير رومية تقريبا

ذكرنا هذه المقادير التى جرت المعاملة بها في هذه الازمان المتأخرة ليمرن القارىء على قراءة وسماع الف قنطار من الذهب التى انكرت علينا مع اننا أهملنا شيئا كثيرا من الغرائب الواقعة تحت أنظارنا

ولبيان الامر الثاني وهو ثلاثة الملايين من المجلدات التى جاء ذكرها فى خطبة افتتاح الجامعة أكتفى بنقل عبارة ثقة من الثقات وهو المسيو كاترمير Quatremere ذكرها فى الصحيفة ٢٩ التاسعة والعشرين من نبذة له طبعت فى مجموعته سنة ١٨٦٢ بمدينة باريس بمطبعة ديكرك رقم ٥٥ بشارع السين وعنوان تلك النبذة محبة الشرقيين للكتب وها هى العبارة التى اكتفى بنقلها عنه .

قال قبلا ان خزائن (كتبخانة) الخلفاء الفاطميين الكثيرة العدد لما نهبت نقل قسم من كتبها خارج القطر المصرى فمن ذلك أن ثمانية احمال من الكتب نقلت الى سورية ومن المظنون ان كثيرا من هذه الكتب حفظ في مدينة طرابلس الشام وفي هذه المدينة تألفت تحت عناية القضاة من آل عمار جمعية علمية مشهورة باسم دار العلم وأنشأت خزانة كتب (كتبخانة) مؤلفة من ثلاثة ملايين من المجلدات منها ٥٠ الف مصحف و ٢٠ الف تفسير وكان لآل عمار في هذه الخزانة مائة ناسخ تجرى عليهم الارزاق سنويا بله ان هذه الاسرة كانت ترسل الى جميع الاقطار رجالا ماهرين وتكلفهم ابتياع أو انتساخ جميع الكتب التى يمكن أن يجدوها

وروى مؤرخ من مؤرخى العرب أنه حينما وقعت هذه المدينة في أيدي الصليبيين

في سنة ٣ ٥ هـ دخل قسس هذه الخزانة فصادف ان أول غرفة دخلها كانت تحتوي على المصاحف فوضع يده على ٢ نسخة منه بالتوالى واذ وجدها جميعها مصاحف أعلن ان هذه الدار لاتحتوى الا على كتب مخالفة للحق وبناء على هذا الحكم أحرقها الفرنج فصارت رمادا ولم ينج من الحريق الا عدد قليل من الاجزاء تفرقت شذر مذر فى كثير من البلاد وقد رويت هذه الحادثة كما ذكرها المؤرخون الشرقيون ولكن اذا لم نقل ان حادثة الحريق مخترعة فمن الجائز ان نعرض على الاقل انها محرفة أو مبالغ فيها بسبب العصبية القومية وذلك لان المسلمين قد اتهموا احيانا باحراق خزانة الاسكندرية ولا شك ان ضمائرهم ترتاح لايقاع تهمة بربرية من هذا النوع على عاتق النصارى كذلك اهـ

هذه هي عبارة المسيو كاترمير برمتها وهو من الباحثين المدققين ولا يمكن ان يدخل تحت وصف المعترض الذي ربما لايسمع كثيرا مما يرويه العرب المحققون لان فيهم قوما ألفوا المبالغة ورماهم جميعا بجريرة افراد منهم وأنت ترى ان كاترمير لم يخالجه أدنى شك فى تقدير العدد وانما استبعد الخبر المتعلق باحراق الكتب ولما كان هذا الخبر محلا للشك فقد اهمله بالمرة . وان كان الاستاذ جرجى بن صاحب تاريخ سورية قد أشار اليه وتأسف عليه

وهذه الارقام ذكرها رجل من ثقات الانكليز وأكثر بحاثيهم في أمور المشرق وهو العلامة جبون فى تاريخ الدولة الرومانية (جزء ثانى صفحة ٥ ٥) وقال ان الافرنج أحرقوها . أما ابن خلكان فقال بانهم انتهبوها في سنة ٢ ٥ هجرية ومثله ابن الاثير وكلاهما قرر بان عددها مما لايعد ولا يحصى

ولبيان الامر الثالث نقول

ان الحرب الشرعية هي التى تقام لاعلاء كلمة الله وليس المراد من اعلاء كلمة الله الدعوة الى الاسلام بالسيف فان هذا مما لايكون أبدا كما سنبينه فى هذه المحاضرة . وانما المراد منها ماعرف فى تاريخ صاحب الشريعة الاسلامية وبعض خلفائه (رضى) وذلك ان الدين بنى على الدعوة اليه بالحسنى ولكن زعماء المشركين وسائر الممالك

وقتئذ كبر عليهم ان يدينوا لدين جاء به يتيم عربي ويسوى بين الملوك والسوقة ويسيغ للخليفة الثاني أن يأمر مثل جبلة بن الايهم ان يرفع رأسه لجلف من أجلاف العرب ليثأر لنفسه فيلطمه كما لطمه . كبر عليهم الاذعان فقاوموا القائمين بنشره وشنوا عليهم الغارات يريدون صدهم عن سبيل الله واطفاء نوره ويأبى الله الا ان يتم نوره فجاز للمسلمين وقتئذ بل وجب عليهم ان يذودوا عن حياضهم ويذبوا عن اعراضهم والا لكانوا أخساء جبناء فاعد المسلمون لاعدائهم مااستطاعوا من قوة ومن رباط الخيل وصدوا هجماتهم وانتقموا لانفسهم ممن آذاهم وكذلك الله يفعل بالمعتدين : فكانت تلك الحروب لدفع من يقف في سبيل المسلمين فيمنعهم من نشر دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة لذلك سميت حروبا شرعية وحق لها ان تسمى كذلك

ولا يفهم من قول المسلمين للمحاربين : الاسلام أو الجزية اوالحرب : ان حربهم اياهم كان لحملهم على الاسلام فان الذى اضطر المسلمين الى الحرب انما هم المحاربون أنفسهم فلما كانت تشتد الازمة بالمحاربين كانوا يحقنون دماءهم من المسلمين الذين نصرهم الله بقوة حقهم وبعدم اعتدائهم الا على من اعتدي عليهم وكان حقن الدماء بأحد أمرين اما الاسلام ليصيروا اخوانهم وأما الجزية التى لابد منها لأية أمة مغلوبة في كل عصر من العصور والا لو كانت هذه العبارة (الاسلام أو الجزية او الحرب) لحمل الناس على الاسلام لما خيروهم بين الجزية والاسلام ولم يرضوا منهم دون الاسلام شيئاً

ان الذى يتأمل في مثير الحروب الاسلامية بادئ الامر يعلم علما ليس بالظن ان المسلمين لم يحاربوا الا من أراد صدهم عن سبيل الله فحاربهم وآذاهم فمن ذلك ان اول الغزوات كانت مع قريش فنتركها ونترك سائر غزواتهم كذلك لما هو معروف من أمر قريش وايذائها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه واخراجهم من ديارهم . ونذكر من بعد ذلك غزوة بني قينقاع من يهود المدينة . فقد حاربهم المسلمون لنقضهم العهد بعد غزوة بدر الكبرى وهتكهم حرمة سيدة من نساء الانصار ثم غزوة بنى غطفان ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا بعد أن علموا أن بنى تعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة دعثور المحاربي للاغارة على المدينة ثم سرية عاصم بن ثابت الانصارى وكانوا مع رهط

[illegible]

[illegible]

والخصومات والنزاع الداخلي والرجوع الى التفرق دينا ودنيا فأنفذ جيش أسامة لمحرب الاعداء بالعرب فان ذلك خير من أن يضرب بعض العرب ببعض اذا لم يشغلهم بحرب غيرهم وكذلك رأى عمر رضي الله تعالى عنه من بعده فدوخ بجيوشه وأبطاله خالد والمثنى وأبي عبيدة وعمرو الاعداء وفتح البلاد لتكون موارد خير للامة العربية ولترفع عن تلك البلاد التي فتحها الاسلام ظلم الرومان والفرس الذي بلغ اذ ذاك أشده كما كانت حاله في فتح مصر وأمرها معروف وأباح له ولابي بكر حرب الروم وفتح بلدانهم ما أباح للنبي صلى الله عليه وسلم من قبلهما وهي الترات التي للمسلمين عند الروم ومعلوم ان المسلمين لما فتحوا مصر وغيرها لم يحاربوا الا أهل الدولة وهم الروم وذلك لامرين أولهما اخراجهم من تلك البلاد وذلك كان خيرا للمحكومين وقد كان أهل مصر والشام يساعدون العرب على الروم وكذلك أهل العراق على الفرس. وثانيهما انتفاع العرب بالبلدان التي فتحوها انتفاعهم في الحضارة والمعايش والعلوم وغيرها

لاجل ذلك يمكننا أن نقول ان حروبهم كانت استعمارية ويتضح ذلك بأجلى وضوح في حروب من بعد عمر من الخلفاء والامراء . يظهر ذلك لمن ينظر نظرا سطحيا الى أسباب هذه الحروب وما جرته من الفتوح التي أوجبت نشر الدين وتعميمه بالمخالطة ومظاهر الفضيلة والكمالات التي امتاز بها المسلمون في أيام السلف الصالح والصدر الاول وقد دوّن المسلمون في تلك الايام الخوالي كل دقيقة وكبيرة مما يتعلق بهذا الموضوع ولا نرى فيها أمرا واحدا يدعونا الى القول بخلاف مذهبنا وهو أن الحروب كانت حروب مسلمين لا حروب اسلام وأنها كانت حروب توسع في الملك واستعمار للبلدان .

٨

الكتابة والخط والحفظ والتدوين

الكتابة هي الاساس الاول للعمران وهي محور الارتقاء ومناط التقدم في كل الحضارات التي ظهرت قبل الاسلام وبعد الاسلام. ذلك لأنها جرثومة المعارف وينبوع العلم في كل زمان ومكان. والكتابة هي التي حفظت علوم الاقدمين ومهدت سبيل التوسع والتبسط للمتأخرين وهي التي أوقفتنا على ما اتصل الينا من ثمار العلوم واتساع دائرة الافكار بالتدرج فان النقل بالمشافهة قد يعتريه الغلو والتحريف والزيادة والنقص. غير ان الكتابة التي كانت للناس كنبراس في كل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية لم تكتب لنا شيئا عن مبدئها وأول ظهورها أو تاريخ وضعها او كيفيات تدرجها.

ولما لم يكتب تاريخ أصل من الكتابة واسم مستنبطه ومكان انشائه والتقلبات التي طرأت عليه سدل الدهر عليه برقع الخفاء. فغمض عنا أمره وضاعت منا معرفة تاريخه. فأمسى أصل حافظ كل المعارف التي حملها الينا مفقودا وكاشف الغوامض غامضا مجحوبا قد اكتنفته ظلمات الدهور وسترته براقع الاهمال ولم يبق حوله ضوء يهدي العقل اليه الا ضوء نار الحباحب يستضيء به أبناء هذا الزمان فكشفوا بعض الحجب وأظهروا بعض الغوامض.

وقبل الخوض في هذا الموضوع ينبغي لنا أن نجري على سنة السلف الصالح من علماء الاسلام فنعرف الكتابة من طريق اللغة ثم من طريق الاصطلاح

فاما من حيث اللغة فهي مصدر كتب يكتب كتبا وكتابا وكتابة ومكتبة وكتبة فهو كاتب ومعناها الجمع قال تكتب القوم اذا اجتمعوا ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة ولذلك سمي الخط كتابة لضم بعض الحروف الى بعض

والخط لغة هو الطريق المستطيل في الشيء وعند المهندسين أقرب بعد بين نقطتين وفي الاصطلاح هو الكتب بالقلم أو بغيره لان جميع الحروف تتألف من نقط على أشكال مختلفة ويتصل بعض النقط ببعض بخطوط فتتألف منها الحروف

والخط في الاصطلاح هو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس والكتاب المخطوط في اللغة هو المكتوب باليد وفي اصطلاح المتأخرين هو خلاف المطبوع بالوسائل المطبعية المعروفة في أيامنا هذه وقد استعمله المتأخرون تيسيرا لقول الفرنسيين Manuscrit

أما الكتابة من حيث الاصطلاح فهي على تعريف علماء الاسلام صناعة روحانية تظهر بآلة جثمانية والمراد من الروحانية الالفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه ويصور من ضم بعضها الى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه والمراد من الجثمانية الخط الذي يخط القلم فذلك التعريف يشمل جميع ما يسطره القلم مما يتصوره الذهن ويتخيله الوهم فيدخل تحته مطلق الكتابة كما هو المستفاد من المعنى اللغوى

وأما تعريفها عند الفرنج فهي صناعة يعبر بها عن الافكار بعلامات مسطورة وهي تشمل كل ما اصطلح عليه البشر للتعبير عن أفكارهم سواء كان بالصور كما شاع قديما ولا يزال باقيا بين كثيرين من البرابرة الآن أو بالأرقام أو الحروف أو غيرها من العلامات المصطلح عليها بين طائفة من الناس.

ونحن اذا نظرنا في جميع أنواع الكتابة المعروفة نجد أن العلامات المستعملة فيها تنقسم الى قسمين ممتازين أولهما علامات صورية تمثل الاشياء المراد التعبير عنها وتسمى بالكتابة الصورية أو التمثيلية . وثانيهما علامات رموز للألفاظ لا للاشياء وتسمى الكتابة الحرفية والوجدان والواقع يشهدان بأن الكتابة كانت في أول الامر صورية تمثيلية ثم تدرجت من باب التسهيل والتيسير والتقريب حتى صارت حرفية

وأقدم رموز الكتابة الصورية هو الخط البربائي أو الهيروغليفي فقد كانت الصور في أول الامر تشابه الاشياء التي تدل عليها مشابهة تامة فصورة الرجل تدل على الرجل وصورة الفرس تدل على الفرس ونحو ذلك ثم تنقلوا بالتدريج من الحقيقة الى المجاز فصارت صورة الرجل يضرب رأسه بالفأس تدل على الانسان الشرير باعتبار أن الانتحار أعظم الشرور وأكبر الآثام ثم ارتقوا فاستعملوا منها حروف الهجاء المعروفة الآن وقد لايكون بين الكتابة وبين المدلول عليه بها أدنى مشابهة صورية ولكن بينهما علاقة ملازمة تامة . مثال ذلك أن المصريين الاقدمين يعبرون عن مصر العليا بصورة نبات

البردى لكثرته فيها على عهدهم وعن مصر السفلى نبات الشمس لكثرته فيها كذلك
وبهم هذا الاصطلاح الى التسهيل والتقريب الذى توخاه الناس في الكتابة الصورية
التى من نوع الاول توصلوا الى استخراج حروف الهجاء المعروفة قديما وحديثا .
وذلك أن الكتابة الربانية أو المقدسة اختصرها الكهنة فجعلوا منها الكتابة
الخاصة المسماه بالهراطية لان الاولى كانت كثيرة التعقيد وهى التي على الآثار والاحجار
وأما الثانية فاختصرها الكهنة المصريون منها وصاروا يكتبون بها على دروج
البردى وذلك أول تسهيل في شؤون الكتابة حتى اذا اتسع نطاق المعارف وأخذ الناس
منها قسطاً وافرا اختصروا من الكتابة الثانية نوعا جديدا في غاية السهولة وسموه بخط
العامة Dl notique ومن هذا الخط أحدث الامم كلها حروف الهجاء وعن يد
الفينيقيين كما سيأتي بيانه
وهذا القسم الاول هو الذى ظهر واصطلح عليه الناس فى الايام الاولى من عصور
التاريخ الحالية
أما القسم الثانى وهو الكتابة الحرفية فقد تكون العلامة المصطلح عليها دالة على
لفظه تماما كما في الخط المكسيكي الذى كان مستعملا في امريكا عند افتتاحها وكما في الخط
الصيني في آسيا وهو لا يزال مستعملا الى الآن ولذلك لا يتيسر للانسان أن يتعلم
حروف الهجاء الصينية الا بعد أن يبلغ الاربعين من عمره أو أكثر وحينئذ يكون قد
لم من العلم درجة عاليه وقد تكون العلامة لمقطع واحد مركب من حرفين فأكثر
كما في الخط الحبشي واما أن تكون موضوعة للمفردات التي يتألف منها المقطع الواحد
كالحروف الهجائية التى هى الثمرة البالغة اليانعة لكل ما سبقها من المجهودات في ابراز
الافكار في صورة تقرؤها الالوف وألوف الالوف من الناس على نمط واحد كما هي الحال
في الحروف العربية والحروف المستعملة عند هذه الشعوب المتمدنة
والذى ثبت ان الكتابة انما استنبطها أجدادنا المصريون ثم أخذها عنهم ابناء
عمنا الفينيقيون فنشروها فى سائر أقطار المسكونة وكان اليونان أول من اخذها عنهم
وساعدتهم حضارتهم على تعميمها في سائر انحاء المعمور
هذا ومن المعلوم أن الناس بالنسبة الى الالفاظ لا تطاوعهم كبرى الطائفة الاولى أهل

اللغات (السامية) وأسبقها المتكلمون بالعربية ثم العبرانية ثم السريانية ثم الكلدانية ثم الحبشية ثم السامرية من اللغات الحية والفينيقية والنبطية من اللغات الميتة . ولكل منها حروف حسب ما بحسب الظاهر وان كان مرجعها واحدا في الحقيقة

والطائفة الثانية أهل اللغات (الآرية) وهي جنوبية وشمالية فأما الجنوبية فهي الشائعة في الهند وفارس وكتابتها أصبحت بالحروف العربية بفضل انتشار الحضارة الاسلامية فيها (وذلك ماعدا اللغة السنسكريتية التي تعتبر من أقدم لغات العالم) وأما الشمالية فهي المعروفة باللغات الهندية الاوروبية وتشمل لغات أوروبا وقسم عظيم من أمريكا وكتابتها بالحروف اليونانية واللاتينية أو (الرومانية) والسلافية أو (الصقلبية) ومرجع حروف هذه اللغات كلها اليونانية لانها مصدرها .

والطائفة الثالثة اللغات التورانية وأهمها التركية وكتابتها بالحروف العربية

فمن ذلك نستنتج أن الحروف العربية انتشرت بانتشار الحضارة الاسلامية في طائفتين من أهل اللغات البشرية بل وفي الثالثة في اللغة الاسبانية . فقد كان بعض العرب حينما دالت دولتهم بالاندلس يكتب علومه ومعارفه ومنها الفقه والحديث والتصوف وقصص الصالحين بل وترجمة القرآن بحروف عربية والكلام كله اسبانيولي قديم ولا تزال بقايا هذه الكتب محفوظة في مكاتب اسبانيا وقد طبع القوم منها أشياء وعندي شيء منها في خزانتي وتسمى هذه اللغة الخميادو (Aljamiado) تحريفا للكلمة الاعجمية لان العين ليست في لغات الافرنج وكذلك الهمزة المتوسطة فاضطروا أن ينطقوها ألجمي ثم تداولوها فقالوا ألخمي لسكون اللام والاسبانيون ينطقون الجيم خاء في أحايين كثيرة فقالوا ألخمي ثم أضافوا اليها علامة النسبة عندهم فقالوا الخميادو (Aljamiado)

ونجد لذلك نظيرا في بلاد الشام فان عددا عظيما من السريان يكتب لغته بالحرف العربي ويسمون هذه الكتابة (القلم الكرشوني) وكذلك أهل مدغسكر وأهل جزائر ملايو وأهل بورنيو فانهم يكتبون لغاتهم بالحروف العربية مع زيادة وتعديل وان كان اسلامهم بعيدا عن اللسان العربي ومثل ذلك اللغة الاوردية الشائعة في بلاد الهند .

وكل ذلك دليل على انتشار المدنية الاسلامية وتأثيرها في العالم واتساع مداها ورسوخ أصولها في الاصقاع النائية

هذا واذا نظرنا الى اشكال الحروف المستعملة الآن نجدها تنحصر في سبعة أشكال وهي العربية والعبرانية والسريانية والكلدانية والحبشية والسامرية واليونانية وهذه الاشكال السبعة من أصل واحد قد تطرق اليه التحريف والتعديل والتغيير تبعا لمقتضيات الاحوال نظرا لعدم سهولة المواصلات في الايام القديمة ولعدم وجود الضابط الذى يرجع اليه في رد التحريف الى أصله أو ملافاته ومنعه اذ لم تكن الطباعة موجودة فى تلك الاعصار . والحاضر اكبر دليل على ذلك فان الحروف العربية وهى واحدة ومراجعها واضحة وضابطها موجود وهو الطباعة فضلا عن القواعد المقررة عند الخطاطين فاننا نراها متغايرة بحسب البلاد المختلفة فلها اشكال متغايرة تغايرا جزئيا في مصر وفي الشام وفي العراق وفي فارس وفي تركية وفي تونس وفي الجزائر وفي المغرب بله تغايرها في لغة السواحل (بلاد زنجبار) وفي لغة الملايو وفي غيرها من اللغات غير العربية التى يعتمد أهلها على الحروف العربية .

بل اننا في القطر الواحد نكتب الحروف بأشكال مختلفة فلبعض الاقباط في القطر المصري نمط مخصوص ولفقهاء الكتاتيب فيه نمط مخصوص ولكتاب الدواوين نمط مخصوص وكذلك الحال عند أهل الاقطار الاخرى ذوى اللغات الاجنبية .

ومن ذلك يسهل علينا فهم الاختلاف الذى حدث في اشكال الحروف عند الامم القديمة مع عدم وجود الضوابط المتوفرة لدينا الآن . ومن تأمل في الخطوط السامية وجد التقارب بينها كثيرا وسهل عليه اشتقاق بعضها من بعض

هذا وأول الخطوط العربية هو الحميرى المعروف بالقلم المسند ولا أدرى لماذا سمى بالمسند . وقد بلغ نهاية الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغته من الحضارة والترف ثم انتقل منهم الى الحيرة فيدولة المناذرة والنعامنة نسباء التبابعة ولكنه حرف واضمحلت جودته نظرا لبعد مابين الدولتين فى الحضارة وعزة الملك ومن الحيرة أخذته قريش قبل البعثة النبوية بقليل

وأول من كتب بالعربية أهل اليمن وكانوا يسمون خطهم بالمسند وهو الخط الحميرى وكانوا يكتبونه حروفا منفصلة ويمنعون العامة من تعلمه حتى تعلمه ثلاثة نفر من طيء فتصرفوا فيه وسموه بخط الجزم لانه اقتطع من خط حمير ثم علموه أهل الانبار وأولهم

مرامر بن مرة وعامر بن جدرة وأسلم بن سدرة ومن الانبار انتشرت الكتابة العربية فاخذها عنهم أهل الحيرة وتداولوها ومنهم بشر بن عبد الملك أخو صاحب دومة الجندل وعدي بن زيد وزيد بن عدي وكانا من كتاب الاكاسرة . ولما قدم الحيرة حرب ابن امية القرشي جد معاوية بن ابى سفيان نقل هذه الكتابة من الحيرة الى الحجاز بعد أن عاد الى مكة وممن تعلمها من أهل الحجاز ورقة بن نوفل ابن خال خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان

والكتابة العربية الحالية متصلة وتكتب من اليمين الى اليسار أما الحميرية فهى منفصلة كما تقدم وتكتب تارة من اليمين الى الشمال . وتارة من الشمال الى اليمين وأما اليونانية واللاتينية وما تفرع عنهما فمن اليسار الى اليمين وكلها على السطر الافقى بخلاف الصينية واليابانية فسطرها رأسى

والكتابة العربية يسهل فيها من السرعة مالا يسهل في غيرها (١) واذ كانت الدواوين الاسلامية من أجل أسباب نشر الكتابة العربية وجب أن نعرفها . من المعلوم ان أمير المؤمنين الخليفة العادل عمر بن الخطاب هو أول من رتب الدوان في الاسلام ولكنه قصره على قيد أسماء البعوث للعلم بعدة من يغيب وحصر أسماء الجند الاسلامى على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب وكان الغرض منه معرفة من يغيب ومعرفة من يستحق الحصة فى الغنائم التى يغنمها المسلمون فى الفتوح ويمكننا أن نقول ان هذا الدوان الذى كان في المدينة المنورة انما كان ديوانا للصرف لا للايراد أما دواوين الايراد وهى التى تسمي بدواوين الخراج والجبايات فبقيت بعد الاسلام على ما كانت عليه من قبل . فديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وديوان مصر بالقبطية وكتابها من أهل العهد القديم . فلما جاء عبد الملك بن مروان وتحولت الخلافة ملكا عضوضا وانتقل القوم من عصامة البداوة الى رواق الحضارة ومن سذاجة الامية الي حذق الكتابة وظهر في العرب وفي مواليهم مهرة في الكتابة والحسابات أمر عبد الملك بنقل هذه الدواوين من الفارسية والرومية والقبطية الى العربية لان الامة أمكنها اذ ذاك ان تستغنى عن الاعجميين بها من أهل هذه البلاد .

(١) هنا أفاض الاستاذ في وجوب البحث والتنقيب وراء الطريقة المختزلة

الخط

جاء الاسلام والذين يعرفون الخط من رجال قريش نفر قليل وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة ابن عبد الله ويزيد بن أبى سفيان وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وحاطب بن عمر العامرى وابو سلمه بن عبد الاسد المخزومى وابان بن سعيد وأخوه خالد ابنا العاص ابن أمية وعبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى وحويطب بن عبد العزى وأبو سفيان بن حرب بن أمية ومعاوية بن أبى سفيان وجهم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب والزبير بن العوام وورقة بن نوفل ابن خال خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمى

ومن النساء الشفاء بنت عبد الله العدويه كانت كاتبة في الجاهلية وهى التى زوجها النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك أم كلثوم بنت عقبة وعائشه بنت سعد وكريمة بنت المقداد ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم الشفاء أن تعلم حفصة الكتابة فعلمتها

ولما هاجر المسلمون الى المدينة وجدوا في أهلها نفرا قليلا من اليهود ومن الاوس والخزرج يعرف الخط فاستعملوا من الاوس والخزرج لكتابة الوحى أكثر من ثلاثين رجلا وكان أول من كتب الوحي أبى بن كعب الانصارى وهو أول من كتب في آخر الكتاب وكتب فلان

وبعد أن استقر الاسلام في المدينة أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن تعلم صبيانها الكتابة والقراءة واستعمل فى ذلك من أسرى بدر من لم يستطع أن يفدى نفسه بالمال وكان فداء الرجل الواحد منهم تعليمه عشرة من أولاد المسلمين الكتابة والقراءه

ثم أمر صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت الانصارى أن يتعلم العبرانية أو السريانية فتعلم هذه اللغة فى نصف شهر على ماقيل فكان أول مترجم في الاسلام

والمطيم شأن الخط اذ ذاك عند العرب وقلة عارفيه كانوا يسمون من يعرفه ويعرف الرمى والسباحة بالكامل

واذ كان الخط من جملة الفنون والصنائع التي تقبل الزيادة والنقص كان لاول الاسلام غير بالغ مبلغه من الاحكام والتنميق ولا الى التوسط لقلة المشتغلين به وقتئذ واذا تصفحنا المصاحف العتيقة المخطوطه بأقلام الصحابة الباقية من ذلك العهد الاول في خزائن الكتب العمومية كالكتبخانة الخديوية المصرية وغيرها علمنا أن خطوط الصحابة كانت غير متقنة وفضلا عن ذلك فان الكثير من رسمهم قد خالف ما اقتضته صناعة الخط عند أهلها ثم خلف من بعد هؤلاء السلف الصالح خلف ظنوا أن الخط من الامور التي لا تقبل زيادة ولا نقصاً أو أنها قد بلغت الكمال ببركة الصحابة فاقتفوا آثارهم فيه واتبعوا سننهم من غير أن يزيدوا فيه شيئاً . وهذا الظن غير حسن فان الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يعنوا بالخط عناية تحسين واتقان والا لما كان زمنهم وحده كافياً لاحكام الخط واعلاء شأنه ولوجب عندئذ على من يخلفهم أن يعنى به عنايتهم ليبلغ منه ما أرادوا أن يبلغوه من الجودة والاحكام . أما مازعمه بعض المغفلين من أن الصحابة كانوا محكمين لصناعة الخط فغير صحيح وغير ميسور لهم اذ ذاك قال ابن خلدون

: ان أولئك المغفلين حسبوا أن أغلاط الرسم التي وقعت من الصحابة كانت مقصودة وراحوا يظهرون لها أوجها ماأنزل الله بها من سلطان لاعتقادهم ان في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة الخط وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ماخالف الاجادة من رسمه مع أن الخط ليس بكمال في حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية والكمال في الصنائع اضافي ليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وانما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل دلالته على مافي النفوس . وقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالا في حقه وبالنسبة الى مقامه الشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها وليست الامية كمالا في حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا : اه

ولقد بقي الخط على حاله القديمة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين

[illegible]

الذى نشره وطبعه بخطه فى بلاد سويسرا هذه الايام المستشرق العلامة هنس كار. هو العلامة الجليل أحمد بن يوسف . قال أحمد بن طاهر دخل أحمد بن يوسف يوماً على المأمون فأمره فكتب بين يديه والمأمون يمل عليه قال وكان أحمد بن يوسف مع لسانه حلو الخط جدا فنظر المأمون الى خطه فقال ياأحمد لوددت أني أخط مثل خطك وعليّ صدقة ألف ألف درهم قال فقال له أحمد بن يوسف لايسؤك الله يا أمير المؤمنين فان الله عز وجل لو ارتضى الخط لاحد من خلقه لعلمه نبيه صلى الله عليه وسلم قال فقال المأمون سريتها عنى يا أحمد وأمر له بخمسمائة ألف درهم

ولما ظهر الهاشميون حدث خط يسمى العراقى وهو المحقق ولم يزل يزيد حتى انتهى الامر الى المأمون فأخذ كتابه في تجويد خطوطهم . ثم أحدث ذو الرياستين الفضل ابن سهل الوزير الكاتب خطا نسب اليه فسمي القلم الرياسى . ثم ظهر أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم التميمي معلم المقتدر وأولاده وكان أكتب أهل زمانه فألف رسالة فى الخط سماها (تحفة الرامق) . ثم ظهر أبو على محمد بن على بن مقلة الوزير الكاتب المتوفي سنة ٣٢٨ وهو اول من كتب الخط البديع نقل طريقته من خط الكوفيين وأبرزها فى هذه الصورة وله بذلك فضل المتقدم وخطه غاية في الحسن ثم ظهر صاحب الخط البديع على بن هلال المعروف بابن البواب المتوفي سنة ٤١٣ هـ ولم يوجد في المتقدمين من كتب مثله ولاقاربه وان كان ابن مقلة أول من نقل هذه الطريقة عن الكوفيين فان ابن البواب هذب طريقته ونقحها وكساها حلاوة وبهجة . ثم ظهر أبو المجد ياقوت بن عبد الله الرومي المستعصمى المتوفى ٦٩٨ وهو أجل الخطاطين غير مدافع وأحسنهم خطا غير معارض . وبعدئذ اشتهرت الاقلام الستة بين المتأخرين وهي الثلث والنسخ والتعليق والريحاني والمحقق والرقاع برز في هذه الاقلام جلة من العلماء . ثم ظهر القلم الديواني والدشتى وبقى الامر تابعا لرونق الدولة وانخفاض شأنها حتى آلت الخلافة للاتراك فأحدثوا الخط الرقعة والخط الهمايوني واليهم انتهت الرياسة في الخط على أنواعه الى عهدنا هذا .

٩

تتمة الكلام على الخط
النقط والاعجام

كانت الكتابة في بداية الاسلام ساذجة بسيطة فلم يكن القوم يعنون بالنقط والاعجام تمييزا للحروف المتشابهة خطا لان أهل الصدر الاول أخذوا القرآن والحديث من أفواه الرجال بالتلقين ثم لما كثر أهل الاسلام وتوغلوا في الحضارة واشتدت الحاجة الى الكتابة اضطروا الى النقط والاعجام غير ان الظاهر على ماقيل أنهما موضوعان مع الحروف اذ يبعد ان الحروف مع تشابه صورها كانت عرية عن النقط الى حين نقط المصحف وقد روى ان الصحابة جردوا المصحف من كل شيء حتى النقط . ولقد لبث الناس يقرءون في مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه اربعين سنة ونيفا الى أيام عبد الملك بن مروان حتى كثر التصحيف وانتشر في العراق ففزع الحجاج الى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فوضعوا النقط ازواجا وأفرادا بعضها فوق الحرف و بعضها تحته فغبر الناس زمانا لايكتبون الا بالنقط ولكنهم مع ذلك كانوا يصحفون في كتبهم فتلافى العلماء هذا التصحيف بوضع الاعجام (الحركات)

كان النقط في الاول بوضع نقطة فوق الحرف دليلا على الفتح والى جانبه دليلا على الضم وتحته دليلا على الكسر وبوضع نقطتين دليلا على التنوين مع الحركة وذلك في خلافة معاوية . ثم صار الناس يصحفون في الحروف المتشابهة فرجعوا الى تمييز بعضها من بعض بالنقط. واختاروا للفتحة ألفا صغيرة (ا) ثم جعلوها مستقيمة (ـــ) ومثلها للكسرة من تحت والضمة شبه واو صغيرة وكذلك في الفتحتين والكسرتين والضمتين وذلك في أيام الحجاج . ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدى واضع علم العروض فأتم بقية علامات الاعجام أي الشكل أو الحركات . والظاهر من أصل كلمة اعجام ان هذه الحركات وضعت لهداية العجم الى قراءة كلام العرب . وكان اذ ذاك النقط والاعجام واجبين في المصحف أما في غيره فعند خوف اللبس لانهما ماوضعا الا لازالته . أما مع أمن اللبس فتركه أولى على ماذهب اليه المتقدمون وان كنت أخالفهم في ذلك .

لهذا السبب يرون النقط لذوي الفهم والادراك معيبا مذموما في ذلك الزمان . ولكن الاحوال في زماننا تقضي بخلاف ذلك ولكل زمن لوازم وحاج

ولقد كان الكاتبون في الصدر الاول يغلطون في اليسير دون الكثير و يصحفون في الدقيق دون الجليل لكثرة العلماء وعناية المتعلمين . فلما اضمحل الامر صار مايصحفون فيه أكثر مما يصححون وما يسقطون أكثر مما يضبطون . واذا تدبر الانسان وجد أن التصحيف من أكبر الآفات في اللغة العربية فيكفي أن رجلا له مكانة يقرأ الكلمة على وجه آخر ليصبح هذا الوجه رواية ثانية أو قولا ثانيا وهكذا و بهذه المثابة صارت الاختلافات اللغوية كثيرة في الكلمة الواحدة فصارت كلمات ضم بعضها الى بعض فأفعمت متن اللغة والاشعار والاحاديث ونحو ذلك . فكانوا في بعض الاحيان يتكلفون الكتابة بوضع النقط والاعجام فكان ذلك يصعب عليهم ولذلك كانوا اذا أغفلوا استقصاء هذه الشروط في الكلمة تطرق اليها التصحيف بسهولة . فكان ذلك مدعاة للاخذ عن أفواه الرجال والحفظ في أعماق الصدور

ولقد كان القرآن محفوظا في صدور الرجال وفي الرقاع (١) واللخاف (٢) والعسب (٣) والقضم (٤) . فلما قتل معظم القراء يوم اليمامة ذهب عمر بن الخطاب وله على الاسلام منن ظاهرة فلقي الخليفة الراشد الاول أبا بكر الصديق وقال له ان القتل استحر بالقراء يوم اليمامة واني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن فأرى أن يجمع القرآن فأرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت كاتب الوحي وأعلمه ما قال عمر فقال كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر هو والله خير ولم يزل يراجعه حتى اقنعه فقال له أبو بكر حينئذ : تتبع القرآن وأجمعه : فجمعه من الرقاع واللخاف والعسب والقضم وصدور الرجال ووجد سورة التوبة مع أبي

(١) الرقاع جمع رقعة وهي خرقة يكتب فيها

(٢) اللخاف حجارة بيض رقاق عراض واحدتها لخفة

(٣) العسب واحدة عسيب وهو الجزء الذي لا ينبت عليه الخوص من جريد النخل المعروف الآن عند عامة مصر باسم القحف

(٤) القضم جمع قضيم وهو الجلد الابيض يكتب فيه

العربيـة وكذلك تبـديل المسكوكات الاعجمية بأخرى عربيـة فان ذلك النقـل وهـذا التبديل كانا من أمتن الاركان وأجل الدعائم فى تحسين الخطوط العربية واعلاء شأنها .

***

فأما الدواوين فانها كانت في الشام بالروميـة وفى العراق بالفارسـية وفي مصر بالقبطية حتى زمن الأمويين اللهـم الا الديوان الذى أنشأه الخليفـة الراشـد عمر بن الخطاب فى المدينة فانه كان بالعربية . فلما برع المسلمون ايام بنى أمية في معرفة الخطوط رأوا ان الوقت جاء لتحويل هـذه الدواوين من تلك اللغات الاعجمية الى اللغـة العربية فنقلوا ديوان الشام من الروميـة الى العربية في سـنة ٨١ هـ وذكروا في ذلك حكايات يبعد تصديقها ولـكن الذي يقرب من الظن انهم أرادوا أن يعرفوا حسابهم بأنفسـهم . وأما الحـكايات التى رووها من أن كاتبا من الروم احتاج الى الـكتابة فلم يجد ماء فبال في الدواة فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه فغير معقول .

ولمـا أمر سليمان بن سـعد بنقل الديوان سأل أن يمان بخراج الاردن سـنة وهو ١٨٠٠٠٠ دينار فلم تنته السـنة حتى أكمل الرجل نقل الديوان الى اللغة العربية وكان سرجون كاتب الملوك الامويين فلما رأى ذلك النقل ورآه محررا مضبوطا اغتم وخرج من عند عبد الملك كئيباً حزيناً فلقيه قوم من كتاب الروم فقال لهم اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عليكم .

وكذلك ديوان خراج السواد وسائر العراق لم يزل بالفارسـية حتى تولى الحجاج فاستكتب فارسيا ولـكى يمهد السبيل لنقله الى العربية استعمل معه رجلا اسمه أبوصالح حتى عرف أسرار الصـناعة ومات الفارسى مقتولا غيـلة فولى الحجاج أبا صالح مكانه وتقدم اليه أن ينقل الديوان الى العربيـة فدس له أبناء الفرس على ان يظهر العجز عن هذا النقل فأبى فقدموا له مقدارا من الذهب جسيما فأبى وأعطاه الحجاج أجلا فلم يأته حتى أتم عمله ولذلك كان عبد الحميـد بن يحيى يقول : لله در صالح ماأعظم منته على الـكتاب :

أما الديوان في مصر فانه جعل باللغتين أى بضم العربية الى القبطية فبقيتا معازمانا .

[illegible]
[illegible]
٨٥ ♥ [illegible] ♥ ٨٦ [illegible] ♥ ٥٨
[illegible] ♥ ٤٨ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] ♥ ٨٠ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

♥ ٨٧ [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الزيوف والستوقة (١) والبهرجة (٢). ثم أذن للتجار وغيرهم أن يضربوا الورق . ولما رأى الاعاجم ذلك أخذوا يقلدون الدراهم الاسلامية فغشوا فيها فكانت الدولة تأمر بكسر هذه الزيوف وكان عمر وعثمان من قبل ذلك اذا وجد أحدهما الزيوف في بيت المال جعلها فضة ليمتنع التعامل بها .

وفي أيام عبد الملك بن مروان ضرب رجل على غير سكة المسلمين فأراد أن يقطع يده ثم ترك ذلك وعاقبه . وفي أيام عمر بن عبد العزيز الأموى ضبطت الحكومة رجلا يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه عمر وسجنه وأخذ حديده فطرقه في النار . وكانوا يعاقبون من يقطعها أو يدس الدراهم المفرغة والزيوف

(١) الستوق بفتح السين وضمها وضم التاء فيهما كلمة فارسية من (ست) أي ثلاثة و(تو) أى طبقة والقاف تزاد في آخر الكلمات الفارسية المعربة كما تزاد الجيم وهى الدراهم التى يكون الصفر والنحاس هو الغالب فيها والاكثر فيها فهى الزيوف

(٢) البهرج الملبس بالفضة وهو معرب بنهر اي باطل ومعناه الزغل وهى الدراهم الزيفة الباطلة وهى ذات الفضة الرديئة او المضروبة في غير دار الامير .

تتمة المحاضرة التاسعة

الحفظ والتدوين

قد علمنا ان الامة العربيـة فى زمن الجاهليـة لم تـكن من الـكتابة في شيء . ونزيد الآن انها لم تـكن منذ برأها الله حتى منبثق فجر الاسلام تعرف من العلوم الا ماتقتضـيه أدنى معيشـة كتربية بعض الدواب وانتجاع منازل الغيث والعـلم بالانساب وبرمى السهام والحداء وغير ذلك من المبادىء التى لا يسع البدويّ جهلها . فلما نزلوا ديار من اكتنفهم من الروم والفرس والحبش وهاجر اليهم ناس من اليهود والانباط ممن سامتهم أمم العسف والجور سوء العـذاب وبدلت حالهـم التى كانوا عليها غـير الحال ابتنوا الدور وشادوا السـدود ولبـسوا الخز والديباج ونظروا فى السموات والارض وفي أنفسهم على قدر استطاعتهم (الا قليـلا منهم ممن كانوا عن هؤلاء الامم مبعدين) . غير أن نصيبهم من هـذه العلوم كان قليلا فلم يبلغوا فيها اذ ذاك مبلغا يضطرهم الى التـدوين فـكانوا يكتفون فيها بالحفظ ولم يفطنوا للتدوين لقلة حاجتهم اليه

كان العـرب مغرمين بالانساب والشـعر فـكانوا يفيضون للمفاخرة وانشاد الاشعار الاسواق ويقعدون لها كل مرصد فترفع الانساب وتنشد الاشعار . وما كانوا على شيء أحرص منهـم على حفظها لان فيها مدحهم وهجاءهم وفخرهم وحروبهـم وأنسابهم وغير ذلك مما لا يعنون الا به فكان الشعر وهو ديوانهم كالصحف السائرة من الامم الراقية اليوم . ولقد برزوا في هذين النوعين التبريز كله حتى بذّوا فيهما كل الامم وبلغوا منهما مالا يدرك . ومع كثرة الاشـعار لم يدونوها لجهلهـم الـكتابة كما تقدم فاكتفوا فيها بالحفظ لانهم مرنوا عليه منذ نشأتهم لاضطرارهم اليه فصار عندهم شيئا مألوفا وساعدهم عليه صـفاء أذهانهم وقلة مشاغلهم الدنيوية اذ كانوا يكتفون من الطعام بالتمرة ومن الثياب بالقميص أو الازار والرداء ومن المسكن بالخباء . بله كثرة رياضتهم البدنية التى تقتضيها معيشتهم البدوية

فما كان الشاعر يفرغ من تلاوة قصيدته على ملأ من قومه حتى يكون أكثرهم قد استظهرها . ومن ذلك نشأ اختلاف الروايات في القصيدة الواحدة فان الشاعر ينشد قصيدته على ملأ من السامعين فيحفظها منهم جماعة فربما اختلطت كلمة أو جملة على اذن السامع فبدلها بأخرى وربما عاب عليه آخر شيئا في تلك القصيدة فيغير منها مااقتنع بوجوب تغييره ثم يمر الراوى بآخرين فيسمعهم تلك القصيدة بالالفاظ المغيرة فيحفظها كذلك منهم نفر فتختلف الرواية .

ولما تنفس فجر الاسلام وأيقظ العرب من رقادهم ففتحوا البلاد وجاسوا خلال ديار أقيمت على دعائم المدنية شالت نعامة جهلهم فامتلأت رءوسهم علما وصاروا من أعلى الامم كعبا فيه . غير انه لم يكن له مأوى في صدور الاسلام الا صدور الرجال فكانت الائمة ترتجله في المحافل ولا يتصدى للتعليم غير الحافظ . ولم تكن عنايتهم وقتئذ الا بمسائل العلم وأدلته الصحيحة ولم يكن للفظ نصيب من البحث والتدقيق كما له اليوم وما كانوا يعرفون الكتب بل كانوا ينهون الطلبة عن النظر فيها والاعتماد عليها لئلا تتناولها أيدى التصحيف والتحريف أو التزوير المقصود فيقعوا في شر أعمال المفسدين أو خوفا من أن يقصروا همتهم على اللفظ دون المعنى أو يعتمدوا على الكتب فيهملوا الرواية التي هي عندهم قوام العلوم لاسيما الادبية والنقلية منها

ولقد كان العلماء وقتئذ يفاخر بعضهم بعضا بالحفظ وقلما يكون لاحدهم كتاب واحد يعتمد عليه فيما يزاول وكان بعضهم يهلك كتبه خوفا من الاتكال عليها

يؤيد ذلك ان أول مااشتغل به علماء العرب من العلوم هو تفهم القرآن وحفظ الحديث وكلام العرب . وقد أجمع العلماء أمرهم على ان هذه الاشياء الثلاثة لابد فيها من السماع والسند الصحيح فمن لم يسمعها باسناد لايعد عالما فيها ولذلك لايعترف أئمة الحديث واللغة الذين حصلوا علمهم بالرواية كالامام الحافظ المرحوم الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطي نزيل القاهرة في آخر أيامه . لايعترف مثل هؤلاء المصرى بعلم الحديث واللغة لانقطاع السماع عنا في هذه البلاد

واذ كان السماع هو العمدة في صدر الاسلام كانت الكتب بالضرورة غير معتد

١٥٣٩

بها ولا معول عليها في شيء اذ المسألة مسألة حفظ محض

ان الصحابة والتابعين اقرب عهدهم بصاحب الشريعة الاسلامية وقلة الاختلاف والواقعات ولتمكنهم من مراجعة الثقات كانوا لكل ذلك مستغنين عن تدوين علم الشرائع والاحكام حتى ان بعضهم كره كتابة العلم . فقد روي عن ابن عباس انه نهى عن الكتابة وقال انما ضل من كان قبلكم بالكتابة . وجاء رجل الى عبد الله بن عباس رضى الله عنه فقال اني كتبت كتابا أريد أن أعرضه عليك فلما عرضه عليه أخذه منه ومحاه بالماء فقيل له لماذا فعلت ذلك قال لأنهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم

ولذلك نبغ الحفاظ في هذه الامة وأ كثرهم فى الحديث والشعر واللغة حتى كان الرجل منهم يتصدر في مجلس العلم فيملى من محفوظه ماشاء الله لايرجع الى كتاب وتبقى أماليه مرجعا للباحثين والطلاب . وهذه كتب الأمالى أ كثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر بالشرق و بالاندلس . وقد وصف العلماء الأمالى فقالوا هو جمع املاء وهو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس فيتكلم العالم بما فتح الله عليه من العلم و يكتبه التلامذة فيصير كتابا و يسمونه الاملاء والأمالى

وقد روى صاحب كشف الظنون أسماء بعض كتب فى الأمالى نروى هنا بعضها فمنها (الأمالى الخمسمائة) للامام ابي سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانى المروزى الشافعى المتوفي سنة ٥٥٢ ه و (أمالى ابن الحاجب) المتوفي سنة ٦٧٢ فيه تفسير بعض الآيات وفوائد شتى من النحو على مواضع من المفصل ومواضع من الكافية في غاية من التحقيق و (أمالى ابن حجر) العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ و (أمالى ابن دريد) المتوفي سنة ٣٢١ وهي في العربية و (أمالى ابن الشجرى) المتوفي سنة ٥٧٢ وهى ثمانية مجلدات في خمسة فنون من الادب قال ابن خلكان أملاه في أربعة وثمانين مجلسا و (أمالى ابن عساكر) في الحديث وهو صاحب التاريخ الكبير المتوفي سنة ٥٧١ و (أمالى أبى بكر) الانبارى و (أمالى أبي العلاء) المعرى المتوفي سنة ٤٤٩ وهو مائة كراسة ولم يتمه و (أمالى الامام) أبي يوسف

يعقوب بن ابراهيم الانصاري الحنفي المتوفي سنة ١٨٣ وهي في الفقه يقال انها اكثر من ثلثمائة مجلد و (أمالي جار الله) الزمخشري و (أمالي الزجاج في النحو) وهو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد النحوي المتوفى سنة ٣١٢ وهي ثلاثة الكبرى والوسطى والصغرى و (أمالي القالي في اللغة) وهو الشيخ أبو علي اسماعيل بن القاسم اللغوي المتوفي سنة ٣٥٦

ولما كانت عناية القوم منصرفة الى الحديث كثر الحفاظ في هذا الفن وأتوا بالغرائب وبالبدائع فقد كان معظمهم لايرجع الى كتاب ولا يقتني كتابا كما قلنا ذلك قبلا وانما يتفجر علمهم من المحفوظ في صدورهم ولم يكن الرجل يستحق لقب الحافظ الا اذا بلغ محفوظه من ثلاثة آلاف فما فوق ونشير من باب الدلالة الى بعض أفراد من الحفاظ مثل ابن غياث الكرخي الذي حفظ ثلاثة آلاف حديث وابن درهم الذي حفظ أربعة آلاف حديث وابن عيينة الذي حفظ سبعة آلاف حديث وأما الذين اشتهروا بحفظ عشرة آلاف فهم كثيرون مثل شعبة وحماد الربعي والمروزي وغيرهم وهنالك من ضاعف هذا العدد مثل أبي سعيد عبد الرحمن ابن مهدي وابن عياش والاسفرايني وأما سفيان الثوري فكان يحفظ ثلاثين ألف حديث . وأبو خالد بن يزيد بن هارون كان يقول : « أحفظ أربعة وعشرين ألف حديث بالاسناد ولا فخر وأحفظ للشاميين عشرين ألفا لاأسأل عنها » وأما الختلي البغدادي والعبدي البصري فكانا يحفظان خمسين ألفا وابن أبي عاصم نهب الزنج كتبه في فتنة بالبصرة فأعاد من حفظه خمسين ألفا وأما البخاري فكان يحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح . ونهاية ماوصل اليه البشر مابلغه ابن حنبل قالوا انه حفظ ألف ألف حديث

كذلك كان شأنهم في الادب واللغة فقد أملى ابن الانباري من غريب الحديث من محفوظه ماملأ خمسة وأربعين ألف ورقة وكان يحفظ ثلثمائة ألف بيت شاهدا للقرآن وابن أبي هاشم البغدادي أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة في اللغة خلاف الكتب الكثيرة التي صنفها من غير أن يرجع الى كتاب

وقد اشتهر الحفاظ فى الاندلس وفي المغرب وأتوا بالعجائب والغرائب فمنهم ابن حزم الظاهري المشهور وأبو العباس احمد المقرى صاحب كتاب نفح الطيب ومنهم عبد الواحد المراكشى أملى بمصر التى كان فيها سنة ٦١٩ كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب وهو من نفائس الكتب التى أرى انها تستحق أن تكتب بماء الذهب ويتوفر المتأدبون على قراءتها وتكريرها مرارا عديدة وقد أشار فيه الى أستاذه ابى جعفر أحمد بن محمد بن يحيي الحميرى الذى كان يقرأ عليه بقرطبة كتاب الحماسة ولزمه سنين فقال :

« مارأيت أروي لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه رضى الله عنه وجازاه عنا خيرا أدرك جلة من مشايخ الاندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم . قال لى ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت علي أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت في نقلها فقال لى ما يمكن أن يكون فى الدنيا أصل أصح من الاصل الذى كتبت منه فقلت له أين وجدته قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا . وكنا في المسجد في زاوية فقلت له أين هو فقال عن يمينك فعلمت انه يريد الشيخ فقلت ماعلى يمينى الا الاستاذ فقال لى هو أصلي وباملائه كتبت كان يملى علي من حفظه . فجعلت أتعجب فسمع الاستاذ حديثنا فالتفت الينا وقال فيم أنتما؟ فاخبره ولده الخبر فلما رأى تعجبي قال بعيداً أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواما لايعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظا ولا يرونه مجتهدا وتوفي أبو جعفر هذا سنة ٦١٠ ه »

وقد انتشرت عادة الحفظ في جميع طبقات الامة الاسلامية فقد ذكر ابن خلكان ان الملك المعظم عيسى سلطان الشام ابن الملك العادل الايوبى الفقيه الحنفي الاديب المتوفي سنة ٦٠٤ أمر الفقهاء أن يجردوا له مذهب أبي حنيفة دون صاحبيه فجردوه له في عشرة مجلدات وسموه التذكرة وكان لايفارقه سفرا ولا حضرا ويديم

[illegible]

الرحلة الى الاصقاع البعيدة والامكنة الشاسعة

فقد كان طلاب العلم وقتئذ يقتحمون عقبات صعبة ويعانون فى سبيله مالا يكاد يوصف ولا بأس من ايراد حكاية هنا تدل على ذلك . وهى ان طالبين رحلا من أقطار بعيدة الى بغداد فيما أذكر لطلب علم الطب عن نصرانى فاتفق يوم قدومهما بغداد ان كان ذلك العالم فى الكنيسة فتوجها اليه للقائه هناك فوجداه بقميص واحد مكشوف الرأس يدور حول جدار الكنيسة من داخلها وفى يده نار ببخور فلبثا حتى فرغ فاذا به قد توسم فيهما دلائل الاستغراب والاستنكار فبعد أن سألهما عن أحوالهما وما قصداه منه قال لهما لااستطيع ان أعلمكما حتى تحجا وتعودا الى فلم يريا بدا من امتثال أمره فذهبا الى الحج وبعد أن عادا من مكة قال لهما ماذا صنعتما في الحج قالا كيت وكيت قال وما كانت حالكما في الصفا والمروة قالا كنا نهرول فيما بينهما فقال لهما اذاً لاتعجبا من الحال التى كنت عليها في الكنيسة وقت قدومكما فان الامور الدينية يجب ان تؤخذ بالتسليم والقبول من غير اعتراض ولا انتقاد . وبعدئذ علمهما ماقصداه فيه

ومع هذه الصعوبات وتلك المشاق كان يزداد طلاب العلم كل يوم رغبة فيه وتهافتا عليه ولم تثنهم عنه قلة أرزاقهم ومضايق الزمن ووعورة الطرق وصعوبة الطلب وذل العلماء

غير ان ماحدث أثر ذلك من اختلاف العلماء في الآراء وانتشار مذاهبهم وغلو أنصارهم واتساع الامصار الاسلامية وامتداد سلطانهم وتفرق الصحابة والتابعين وغيرهم من حملة العلم في البلدان الشاسعة والاصقاع المتنائية وحدوث الفتن وكثرة الفتاوى بلا علم ولا هدي اتباعا لاهواء بعض الامراء وطمع بعض العلماء . كل هذا اضطر العلماء الى تدوين محفوظاتهم . وكذلك حملهم على التدوين اشتغالهم بالنظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والاصول وترتيب الابواب والفصول وتكثير المسائل بادلتها وايراد الشبه باجوبتها وتعيين الاوضاع والاصطلاحات وتبيين المذاهب والاختلافات وغير ذلك مما ذكره العلماء . ومما دفع العلماء الى التدوين

رغبة الامراء في التعلم والتأدب وعدم استطاعة بعضهم حضور مجالس العلم . ورغبتهم كذلك في تأديب أولادهم وخوفهم من فقدان العلماء بسفر أو بموت أو بسبب آخر وقد كان أكثرهم رحالة . وكذلك رغبة العلماء أنفسهم في تعليم أولادهم وأفلاذ أكبادهم وخشيتهم الموت قبل اتمام ذلك

وأنتم تعلمون ان كتبا كثيرة دونت في الاسلام برسم الامراء وبرسم أبنائهم وبرسم ابناء العلماء وامثال ذلك كثير استفاضت به كتب التاريخ والاخبار . ومن هذه الكتب كتاب ألف با الذي ألفه أبو الحجاج البلوي لابنه وهو كتاب ممتع في الادب وكتاب واسطة السلوك للسلطان أبي حمو موسى المطبوع في تونس المترجم الى اللغة الاسبانية وطبع في مدريد وكتاب طبيب الحجاج الذي ألفه لابنه

فابتدأ التدوين منذ القرن الاول للهجرة ولكنه كان ضئيلا لا يذكر . وكثر وازداد في أواخر القرن الثاني أيام الترجمة والنقل واشتغال العلماء بفنون الادب والحكمة وسنتكلم على النقل والترجمة بالتفصيل

ولقد اختلف العلماء في أول من صنف في الاسلام ولكننا لو اعتبرنا وضع الامام علي بن أبي طالب وأبي الاسود الدؤلي لقواعد علم النحو تدوينا كانا أول من دون في الاسلام وقد قيل ان أبا الاسود توفي سنة ٦٠ هـ وقال ياقوت . كان نصر ابن عاصم الليثي النحوي فقيها عالما بالعربية من قدماء التابعين وكان يسند الى أبي الاسود الدؤلي توفي سنة ٩ هجرة وضع كتابا في العربية

وأول من دون في الطب والحكمة على ما قيل هو طبيب الحجاج بن يوسف الثقفي المتوفي سنة ٩٠ هـ وله كتاب كناش كبير ألفه لابنه وكتاب ابدال الادوية وكيفية دقها وايقاعها واذابتها وشيء من تفسير أسماء الادوية . فعلى هذه الروايات يكون هذان العالمان من أوائل من دونوا في الاسلام .

ومن أول من دون في الحديث في الاسلام الامام مالك بن أنس عالم المدينة ومفتيها صاحب كتاب الموطأ في الحديث

وبعد ذلك اتسع النطاق وفاض بحر العلم حتى وصلت الحضارة الاسلامية بفضل أهله الى الذروة القصوى والمكانة العليا

Date	Not	Date	No.